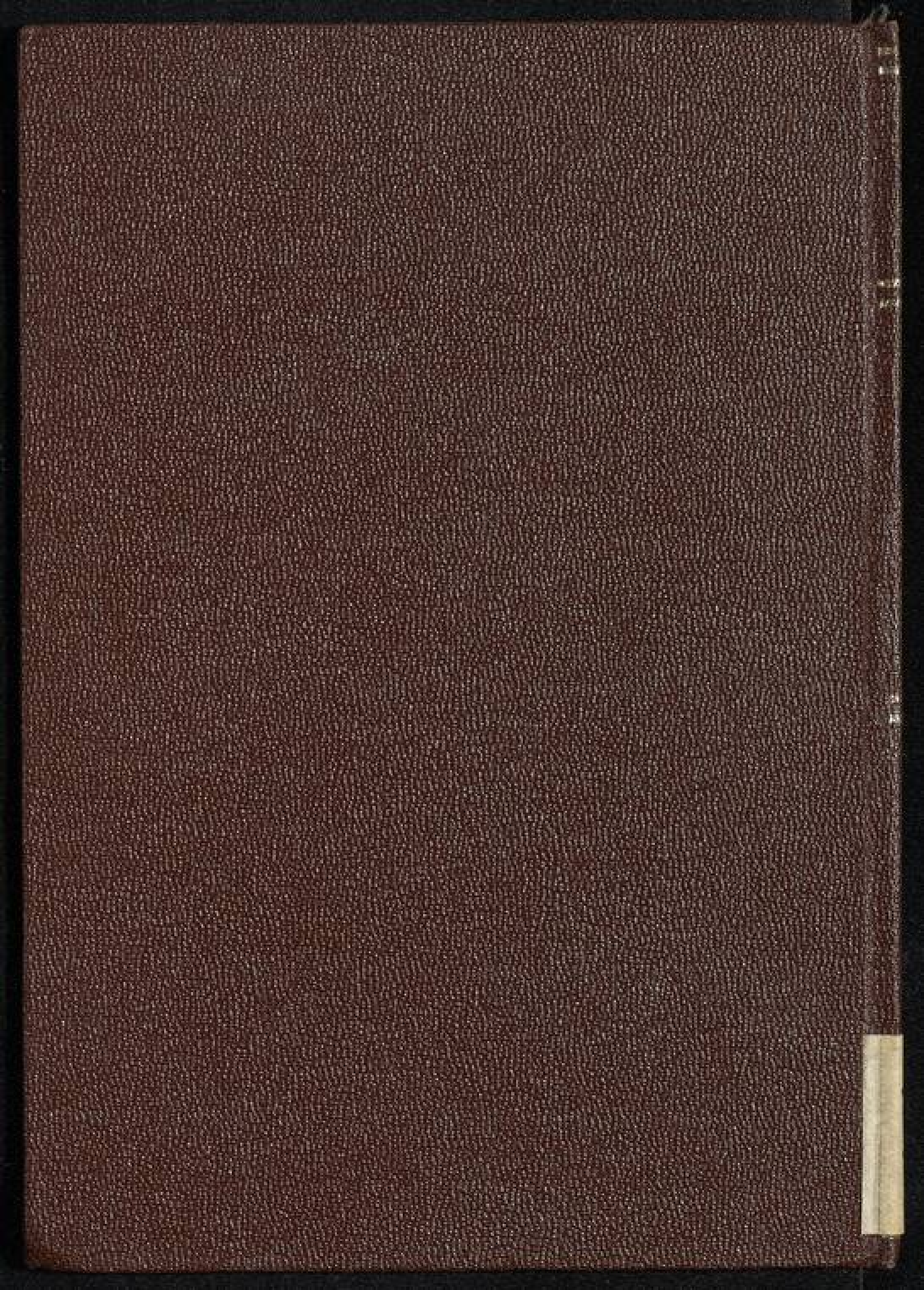
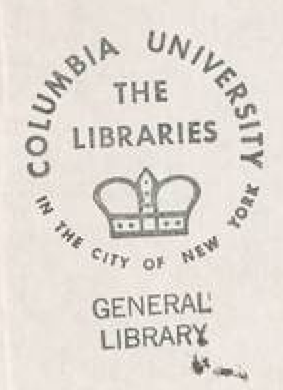
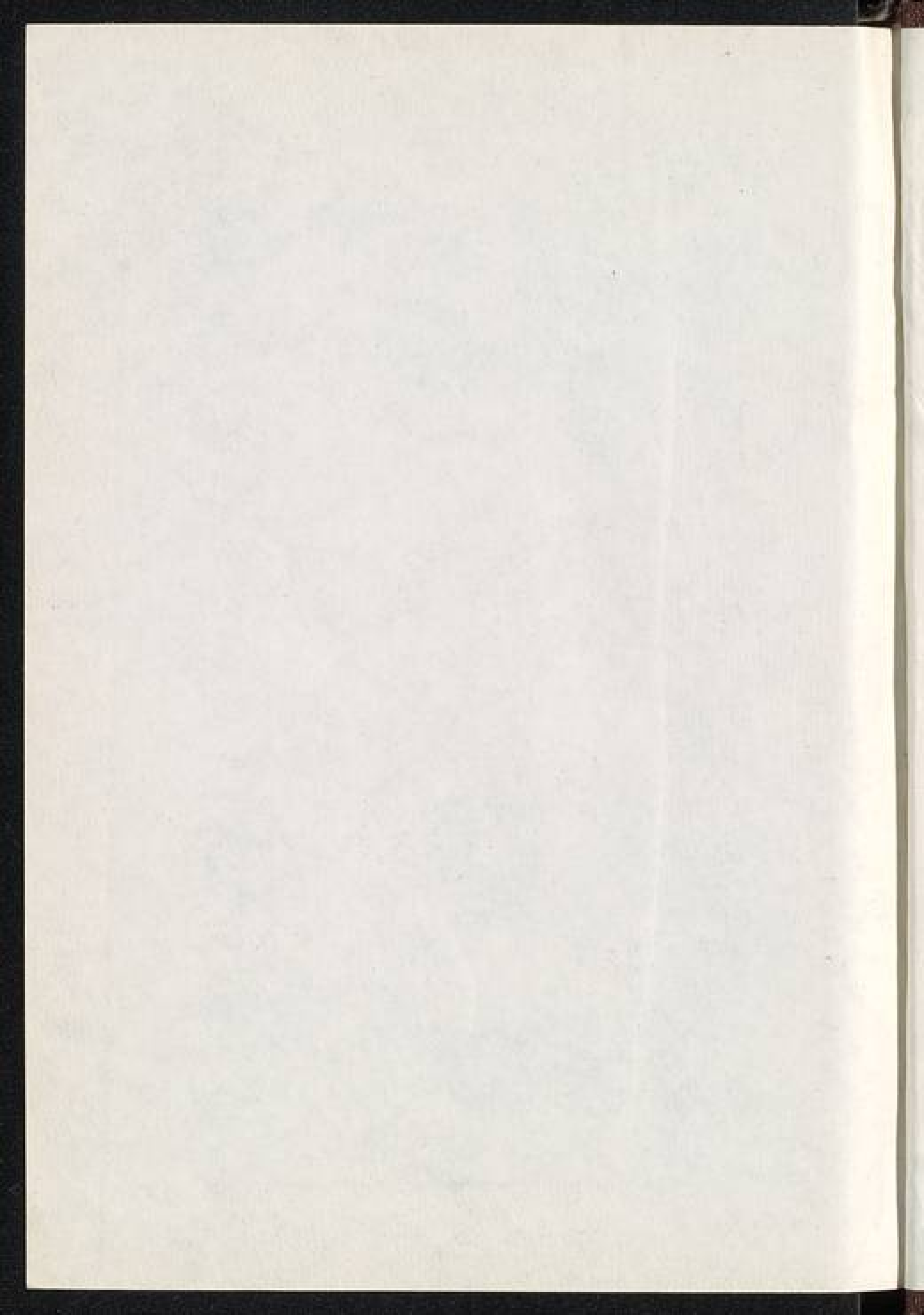
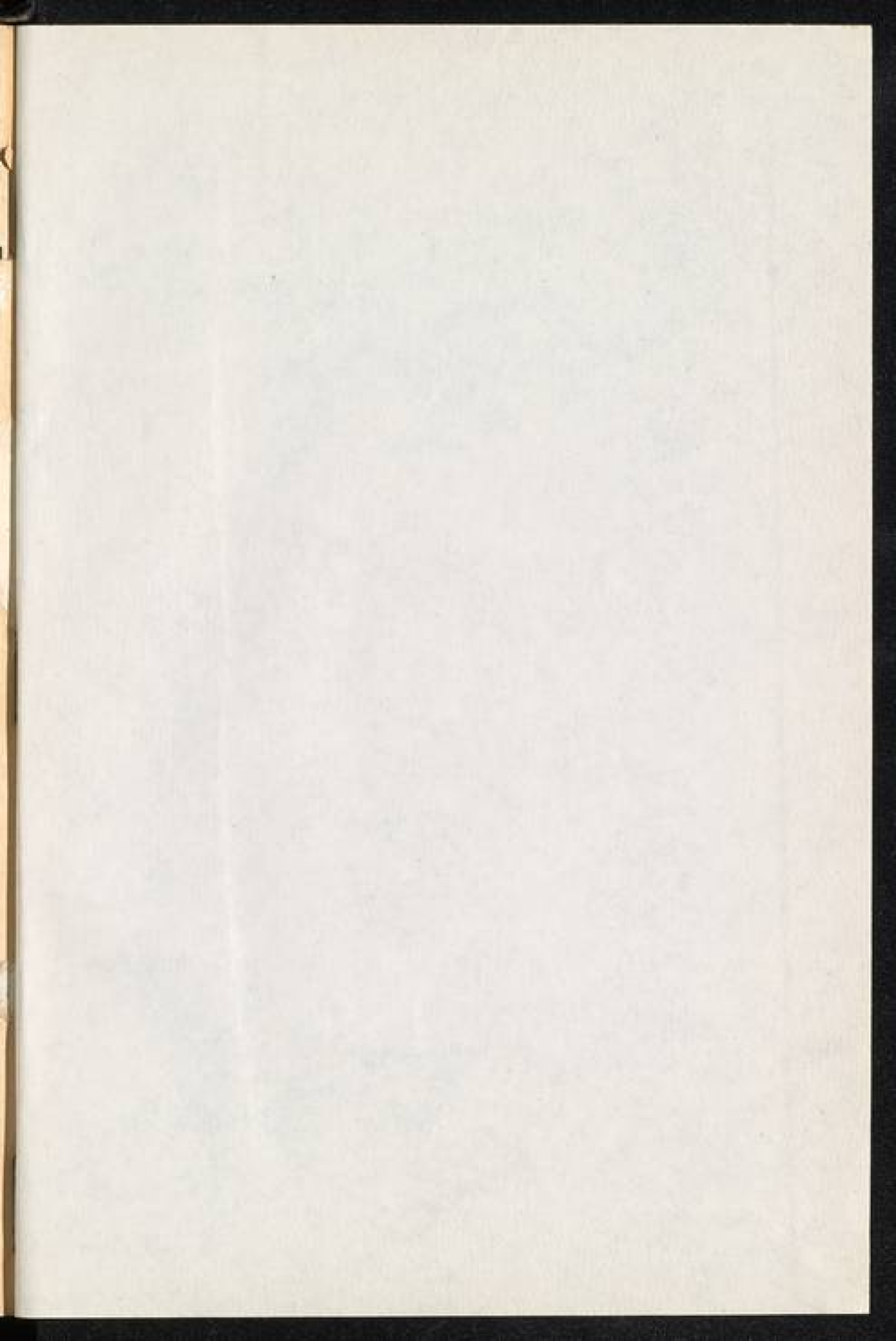








محمد مهدي الإمام

مدرسة الخيانة

مجموعة قصص واقعية

بغداد – العراق

١٩٥٥

الطبعة الاولى ايلول ١٩٥٥

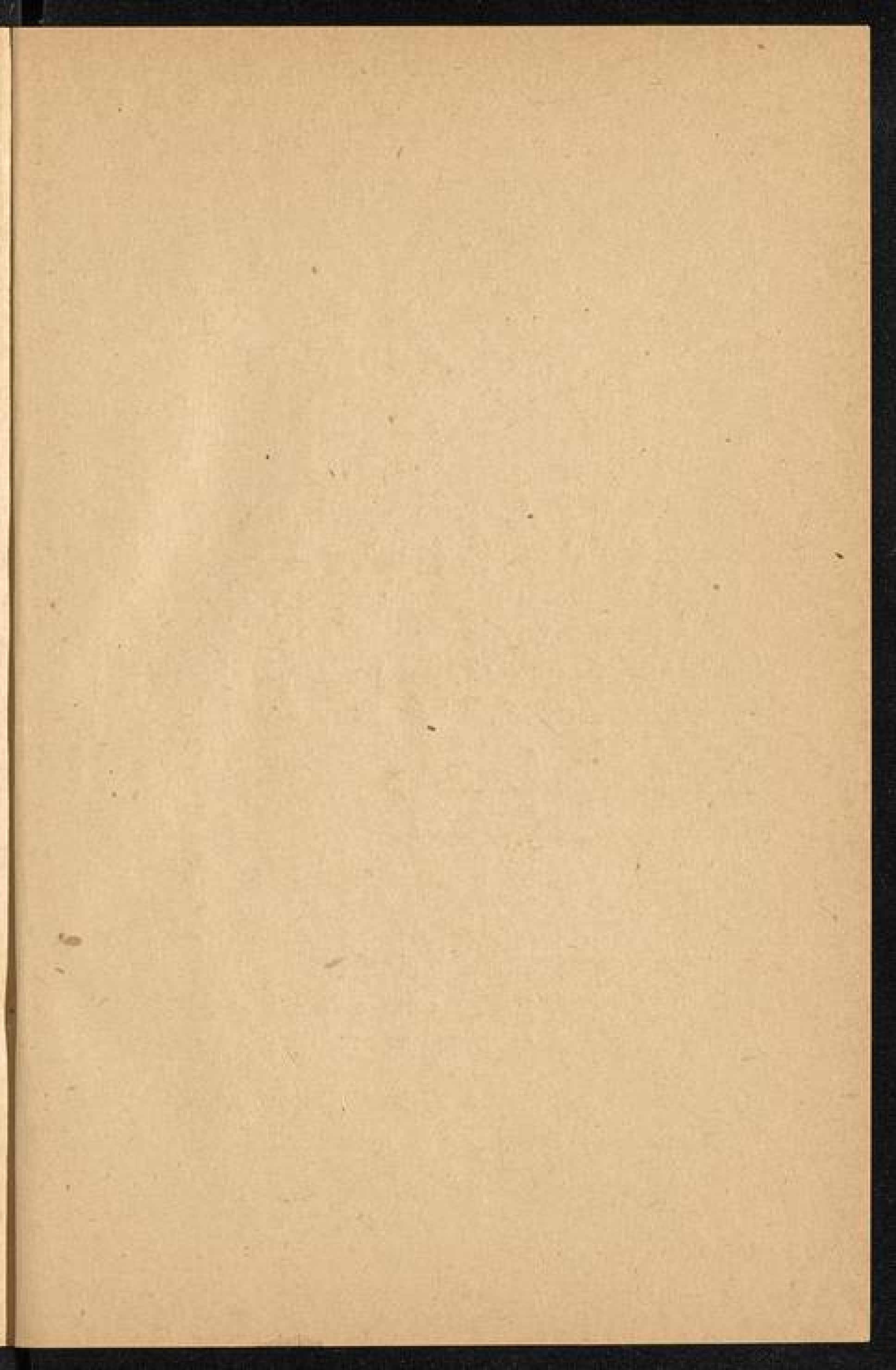
بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء

الى كل مواطن عربي فقد الثقة بنفسه وبامته العربية وبامكانياتها ، فضلّ سواء السبيل ، وانجرف في سراب الدعاوة الضالة المضلّلة !..

اسوق اليه هذه الحقائق والاقاصيص الواقعية ، ورائدي ان انير الطريق امامه ، عساه يهتدي في غده الى واقعه وحقيقته ، فيغدو حجراً صامداً في صرح بناء امته العربية ، لا يخدعه الكلام المعسول الغريب عنه ، او تستهويه المباديء المستوردة البرّاقة ، او تغريه الاماني والاحلام الكاذبة ، التي لا تحمل في طيّاتها الا سمّاً زعافاً يقضي على القومية العربية ، وكلّ قيم اخلاقية ومناقب روحية فيها ، فيتركها اشلاء مادية لا قيمة لها ولا مكانةً في ما هيأه لها التاريخ لتحتله في احداق الشمس ...

المؤلف



مقدمة

درجت العادة بين الكتّاب الناشئين ان يدفعوا بباكورة نتاجهم القصصي والادبي الى اديب كبير ليقدمهم الى جمهور القرّاء ، ورائدهم من ذلك :

اولاً : استغلال اسم الاديب الكبير ،ما كان الى ذلك من سبيل ، رواجاً لكتابهم !..

ثانياً : الظفر بكلمة إطراء يشبعون بها نهم غرورهم وخيلائهم ، فيداخلهم الظن انهم بذلك قد وصلوا الى ما يحلمون به ، الى القمة التي هي غاية ما تصبو اليه نفوسهم ، في حين ما زالوا في بداية الطريق... طريق الادب الشاق الطويل ...

وحسبي في باكورة نتاجي هذا ان اقدّم نفسي اليك ايها القارىء العربي الابي ، وكتابي عارٍ من المقدمات والمقبّلات والالقاب التي يسبغها صاحب المقدمة عادة على الناشئين ، لانني لست من الجبن بحيث لا اجرؤ على ان اقف وجهاً لوجه امامك ، دون اطراء ووساطة كاتب شهير ، او شفاعة اديب نحرير ، اقدم

لك نفسي مشفوعة بشخص باكورة نتاجي القصصي، فان راقتك، فلا شك انك لمقبل بنهم على ما سأقدّمه لك في الايام المقبلة من نتاج جديد ..

وان لم ترقك — فلن تروقك رغم مقدّمة الكاتب الكبير — وستدبر ولا شك عما ادفع به لسوق الادب .

وبين دفتي كتابي هذا اقاصيص عشت بعضها ، وساقتني الظروف للتعرف على البعض الآخر من ابطالها ..

اذن فابطال كتابي هذا ليسوا من صنع الوهم والخيال ، انما هم مواطنون من لحم ودم ، ونماذج بشريّة من مجتمعنا العربي ذاته ، جرفتهم يوماً الدوّامة الحمراء لتجعلهم طلاباً في **مدرسة الخيانة...**

اقدّمهم لك على حقيقتهم دون رتوش او تنميق، كي لا يطغي فنّ القصة ، وسلاسة الاسلوب على حقيقتهم ، فقد رافقت طوراً من اطوار حياتهم ، ولي بهم معرفة وثيقة خلال انضوائي طوال اعوام خمسة تحت لواء هذه المنظمة (الانسانية) !...

... اجل لقد انجرفت بدوري في الدوّامة الحمراء !..

وقد مرت عليّ وعلى هؤلاء الاشخاص تجارب قاسية ، وعاركنا الحياة بافراحها واتراحها ، بغثّها وسمينها وعرفنا الكثير من الخفايا والمعمّيات ، وتوصّلنا الى حقائق ثابتة لاتقبل الجدل..

بيد اننا استطعنا الاستفادة من تجاربنا القاسية في الحياة...

بعد ان بان لنا الواقع ، وظهرت نوايا هذه المدرسة الهدامة !..

وحدثت اخيراً المعجزة !... واستطعنا ان نعتق من ربقة

الاغلال التي كانت تكبّلنا... ونفلت من الدوّامة الحمراء.. بعد ان ادركنا حقيقة هذه المدرسة التي تقذف الى المجتمعات (الانسانية) افواجاً من (ابطال) التخريب والتهديم، وعلمنا الى اية هوّة سحيقة تقود البلاد..

وقد تخرج من قراءتك للكتاب وانت تعرف بعض ابطاله، او سمعت اقاصيص مماثلة عن بعض آخر منهم.

قارئي العزيز:

بي شوق لان اصارحك القول انني ما كنت ارغب ان يكون هذا الكتاب الذي بين يديك باكورة تلك السنوات الطوال المضنية من العمل الادبي الصامت، انما كنت اود صادقاً ان تكون الباكورة كتابي «المهزلة الفاجعة!..» وهي مجموعة اقاصيص انسانية اجتماعية، ولكن لبعض الدوافع الوطنية والقومية البحتة، اردت ان يكون هذا الكتاب هو الباكورة، فقد شعرت خلال تلك السنوات الخمس العجاف مقدار الخطر الكامن، والمتحفز للوثوب على امتنا العربية، وانه بات لزاماً على كل اديب عربي لم تجرفه الدوّامة الحمراء بعد، ان يجرّد قلمه ويغمسه بدماء قلبه، ويقظة ضميره، ليفضح هذه الموجة الدافقة من الادب المترجم او الموضوع، الذي طغى في السنوات الاخيرة على ادبنا العربي، وسواده مترجم عن ادب معروف، او موضوع بلون معين، وجله ذو صبغة حمراء قانية، وتفوح منه رائحة الدم الى درجة تزكم الانوف!..

لهذا الواجب القومي المقدس، ومن اجل هذه الدوافع

السامية وحدها ، وبعد ان وجدت ان بعض ابناء شعبنا العربي ، كاد الانزلاق الى هوة هذه الدوّامة ، رأيت من واجبي الوطني ان اجعل كتابي هذا ، «مدرسة الخيانة» اوّل كتاب اقدمه لك..

وعساي به اصلح ما افسده سواي ، وابني ما هدم ، فيثوب بعض ابناء امتي العربية الى رشدهم ويعودون الى محجّة العقل والصواب .

والله من وراء القصد ولي التوفيق .

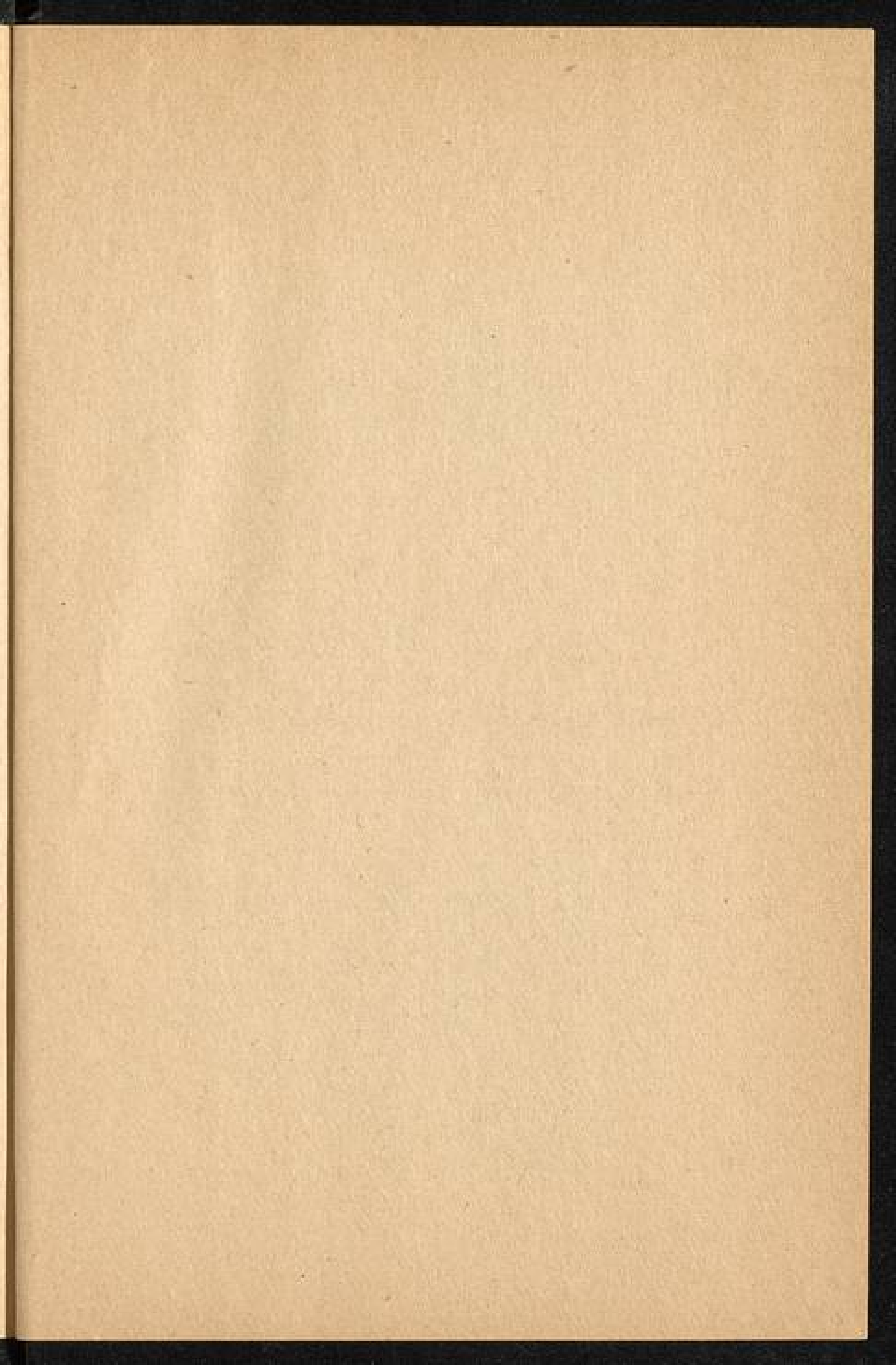
بغداد في تموز ١٩٥٥ احمد مهدي الامام

يصدر تباعاً للمؤلف

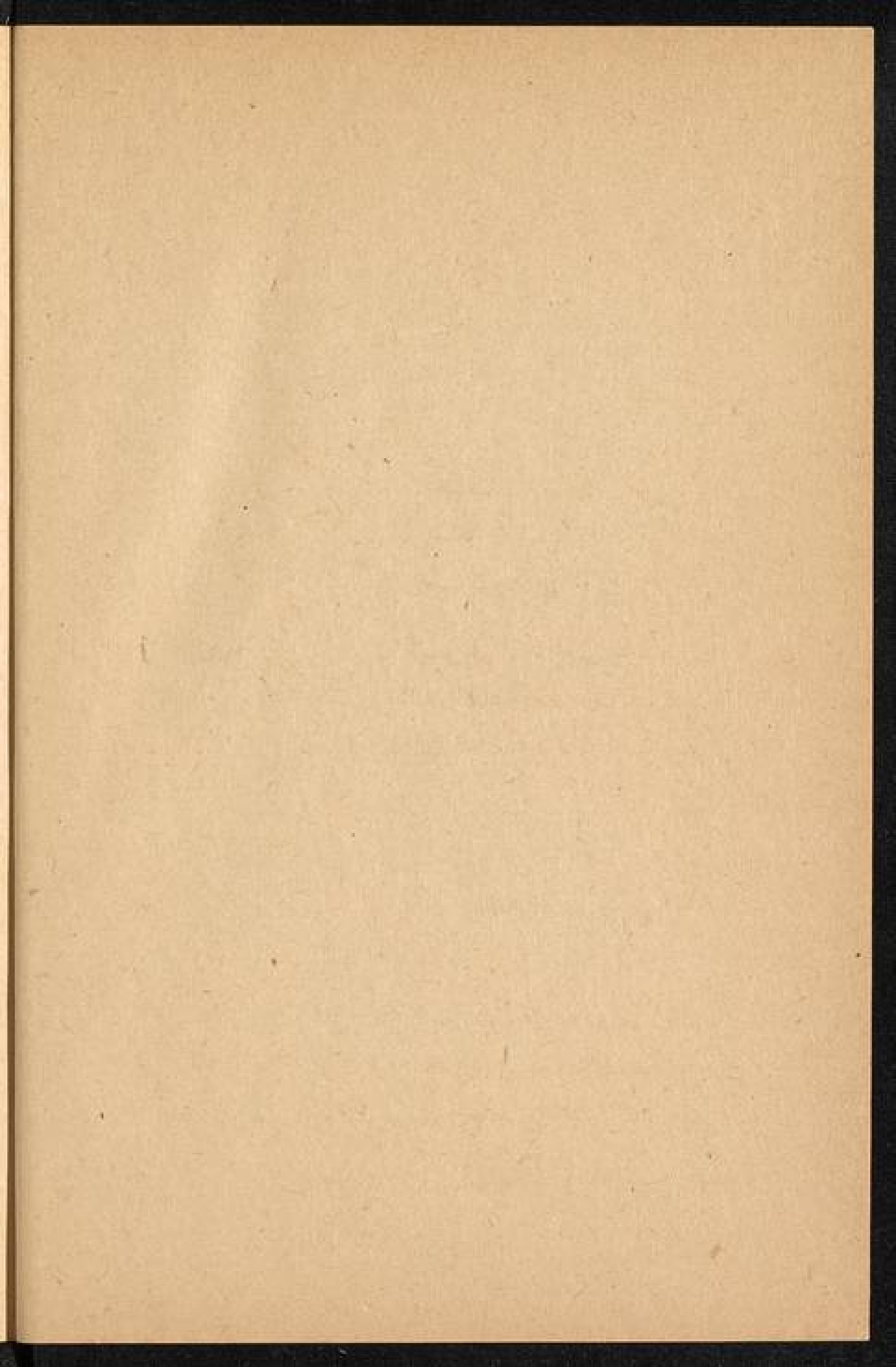
١ – المهزلة الفاجعة !.. : مجموعة قصص انسانية

٢ – الدوّامة الحمراء!.. : اقاصيص وابحاث فكرية

٣ – عبودية وحرمان!.. : مجموعة قصص واقعيّة



حجارة الشَطرنج



وقفت على رصيف شارع الرشيد صامتاً ذاهلاً اكاد انشق غيظاً، ومرجل غضبي يكاد ينفجر ، وانا اشاهد تلك التظاهرة الصغيرة التي اقبلت من الجسر العتيق وراحت تتقدم في شارع الرشيد .

كان المتظاهرون يهتفون بسقوط الاحلاف الاستعمارية منددين بحكومات الغرب ، طالبين ابعاد واقصاء القيّمين على شؤون الدولة لانهم اذناب لارادات اجنبية، وعملاء للاستعمار ومآربه !..

ولم يكتف المتظاهرون بهذا القدر من (الوعي الوطني) والاندفاع والحماس (القوميين) ، و (الغيرة) على مصلحة البلاد.. وحماية شؤونها والذود عن حماها ! ..

بل تجاوز بهم (الاندفاع) — جرياً على عادتهم — فانبروا يهتفون بحياة الاتحاد السوفياتي،(حامي) الشعوب الضعيفة (عامة) والذي يقف زعماؤه دائماً وابداً الى (جانب) الدول العربية (خاصة) ! ..

وراحو يهتفون للحزب الشيوعي العالمي، (نصير) العامل والفلاح (الكادحين)!.. ولموسكو التي هي (عون) للدول والشعوب الضعيفة الفاقدة ثقتها بنفسها كأمة حية !..

ولم ينسوا ان يحيوا اسياد الكرملين الذين (يفضحون ويشجبون) المؤامرات التي تحاك لبلادنا !..

واجلت الطرف بين جموع المتظاهرين ...

كانوا عبارة عن قطيع من الرعاع ، يتسابقون في التصايح بطريقة فوضوية ، لاسقاط هذه الدولة ، وتعييش تلك !..

وفجأة ،وقف نظري على بسّام !... اجل بسّام ذاته صديقي في الزقاق طوال عهد الطفولة ، ورفيقي على المقاعد المدرسية في بعض سني دراستي الابتدائية ، اذ به كعادته يسير في الصفوف الامامية ، ويهتف بحماس ! ..

ووقفت التظاهرة في وسط شارع الرشيد وامام مقهى (مرهون) وهو احد المقاهي (الشعبية) .

وانا ما زلت في مكاني اراقبهم في صمت وذهول ..

واذا بايدي المتظاهرين تتلقف طاولة من المقهى وتضعها على الرصيف ليقفز عليها بسام بخفة ورشاقة ،واندفاع ظاهر . . .

اجل بسّام ذاته اعتلى الطاولة ، ومدّ يده الى جيب سترته واخرج ورقة ، وراح يفتحها ، وابتدأ يخطب بين تصفيق وهتاف رفاقه (الاشاوس)!..

ويح امة درعها كشتبان !... وتظاهرة خطيبها بسام!...

فبسام هذا تلميذ فاشل في جل اطوار حياته الدراسية ،

اقول ذلك لانني رافقته في فترات متقطعة من الصفوف الاولية وفي الزقاق حيث كنا نلهو ونلعب اذ كنا جيراناً ، وكان كسله من النوع النادر بين الطلاب ، اذ انه اصبح مضرب المثل ، وموضع سخريتنا ، فكنا نلقبه (بحمار الصف) ...

ثم اخرجه والده من المدرسة بعد ان تبين انه يصلح لكل شيء الا ان يكون تلميذاً ناجحاً ..

فقد رسب ثلاث مرات في فحص الشهادة الابتدائية !..

واختفى بعدئذ من حياتي، ومن الزقاق ايضاً عدة اعوام ، علمت خلالها انه اصبح جزاراً ...

وزرته عدة مرات في ملحمته فكنا نتجاذب اطـــراف الحديث ونعيد ذكريات المدرسة ، ونتحدث عن الزقـــاق ، احاديث طريفة ذات شجون وشؤون ...

ثم حدث انقلاب في حياته وفي احاديثه ، فلم يعد كما كان عهدي به، بل اصبح ينظر الى الحياة والكون من خلال منظار اسود قاتم ، الشيء الذي سبب بيننا نوعا من الفتور والنفور ...

ولم اعد لمجالسته طوال عام تقريباً رغم تبادلنا التحية بحرارة كلما التقينا !..

والتقينا انا وبسّام بعد ذلك العام عدة مرات ...

هو في التظاهرات التي تقيمها منظمته بمناسبة وغير مناسبة، وانا متفرجٌ ساخر ...

نعم، وبين تصفيق وهتافات رفاقه (الاشاوس) كان بسام يلفظ خطابه الناري مستعرضاً حالة البلاد وما آلت اليه من بؤس

وفقر وانحطاط !.. ثم عرج في خطابه على مأساة فلسطين وراح يصب حمم اللعنات والتهم على الدول الغربية الغاشمة ، وكيف سلخت فلسطين قلب العروبة النابض عن بلادنا ، لتهبها لقمة سائغة للصهاينة الخونة المارقين !..

لقد جبن بسام ان يشتم روسيا وتناسى ان يذكر موقفها المخزي تجاه القضية الفلسطينية العربية !..

وانتقل بعدئذ في خطابه الى الاحلاف العسكرية ، فراح يحمل المسؤولين في البلاد وزر هذا التراخي مع الغرب !..

ولم ينس في خطابه ان يحيي الاتحاد السوفياتي الذي يعمل (لفكرة انسانية) هدفها (إسعاد) البشرية المعذبة !.. ولموسكو (نصيرة) الفقراء والمحرومين ...

وانهى خطابه بان راح يقطع الوعود للمتظاهرين بحياة ارغد، ومستقبل اسعد ... وعيش ارفه في ظل الاتحاد السوفياتي (صديق الشعوب) !..

ثم هبط من المنصة بين هتافات رفاقه ، وكله زهو وخيلاء !.. كأنه قائد مغوار عاد من ساحة الوغى وقد سجل نصراً خالداً لامته وسحق جيش العدو ومزقه ارباً ارباً ...

بقيت في مكاني وانا احس باعماق قلبي بجذوة من الغضب والثورة على هؤلاء الاطفال الصغار الذين لا يرون ابعد من انوفهم . وغاظني ان ارى الى اي درك آل بعض الجهلة من ابناء شعبنا العربي بحيث اصبحوا آلة صماء بكماء تماماً كحجارة الشطرنج بين ايدي منظمتهم الاستعمارية التي تحركهم وفقاً لمآربها وغاياتها ..

وكيف تدفعهم الاساليب المسكوفية المضللة التي تعد الاحزاب الشيوعية في العالم اينما كانت وحيثما وجدت ، في اقاصي الارض ومدانيها ، وفي مجاهل المعمورة ، بالنعيم والسعادة ، بينما يرتع افراد شعبها ضمن الاتحاد السوفياتي في جحيم من الحرمان وشظف العيش ، وحياة بوليسية دكتاتورية رهيبة !..

ومشى موكب الصعاليك ، فرحت بدوري من باب التسلية اقتفي اثره ...

وفجأة التقت نظراتي بنظرات بسام ... فتبسم لي وافلت من بين حلقة رفاقه المتظاهرين وانفك عن صفوفهم مقترباً مني مختالاً بمشيته كالطاووس وهو لا يزال مملؤ بنشوة الانتصار ، وبعد ان اقرأني السلام من عليائه وتصافحنا بحرارة ، بادرني متسائلاً بلهجة لا تخلو من الغرور والعنجهية :

بأي شعور تحس ياصديقي وانت ترى بأم عينك هذا الوعي الشعبي الذي لا مثيل له ؟.. لا شك ان خطابي قد اطربك وهز مشاعرك ؟...

اجبته : احس بشعور غريب لا يحسه احدكم !..

قال فرحاً وقد زاده قولي زهواً وخيلاء :

الهذه الدرجة تبدلت افكارك فاصبحت تؤمن (بالنضال الشعبي) فيبلغ فيك السرور مبلغه ؟!.

اجبته بهدوء : كلا ، انما شعوري شعور الم ... شعور رأفة بأمتنا العربية التي تعلق عليك وعلى امثالك من الخونة آمالاً كباراً ... في حين اصبحتم انتم كحجارة الشطرنج بين انامل

منظمتكم الاستعمارية ...

فقاطعني بحدة وعصبية وكله يهتز غضباً : الهذه الدرجة بلغت بك الوقاحة مبلغاً لتجرؤ على وصمنا بالخيانة .. ونحن نعمل ليل نهار لقضية وطنية شعبية ...

فاجبته بهدؤ وتروٍ : كلا ياصاحبي لست وقحاً، انما هذا هو الواقـــع المخزي ، واعجب كيف ارى شباباً يدعون الوطنية والاخلاص لامتهم ويعملون بايحاء من دولة غريبة عنهم وعن ...

وبثورة عنيفة بادرني قبل ان انهي حديثي : اذن تعتقد ان منظمتنا هي منظمة استعمارية ؟!..

قلت : اجل ان منظمتكم ان هي الا مدرسة للخيانة تخرج افواجـاً من (ابطال) التخريب والتهديم ، (وتلامذة اشاوس) في التهويل والتشويش .

واحتدم بيننا الجدال ، وكاد ان يحدث مشاجرة واردت ان اوقف الحديث عند هذا الحد ، فأخذت منه موعداً على ان نلتقي في اليوم الثاني في منزلي في الثامنة مساء ...

فوافق على ذلك على شرط ان يجلب معه بعض رفاقه ...

قلت : اجلب من طاب لك من رفاقك ...

وكان اليوم الثاني ، فرحت اعد نفسي للساعة الحـــاسمة ، لعلني استطيع ان اعيد بسام ورفاقه الى محجة العقل والصواب ، وارفع عن اعينهم العصائب، لاريهم ضلالة الطريق الذي يسلكونه. فوضعت بعض المواضيع التي سأتطرق لبحثها في الاجتماع ، ونشرت على الحائط رسماً مصوراً للعالم ...

ان نظرة واحدة على مصور العالم تؤكد ان روسيا قد استعمرت نصف العالم وجعلته داخل ستارها الحديدي ...

مساكين هؤلاء السذج من ابنـاء شعبنا العربي فهم عملاء طيّعون من حيث لا يدرون مآرب وغايات اسيادالكرملين الذين لم يرووا غليلهم بعد من استعمار نصف المعمورة ، فما زالوا يغذون الاحزاب الشيوعية في العالم بالمال والتعاليم والعواطف فتقع من افراد الحزب موقع الاجلال والتقديس لانها صادرةعن عاصمة (ياصعاليك العالم اتحدوا) .

وتتعامل عاصمة الصعاليك بهذه الاحزاب كالقطع النادر ، تثيرها هنا وتذبحها هناك لخدمة واحدة ، ومصلحة واحدة ، وهدف واحد ، من اجل روسيا !.. مستغلين جهل وفقر وحرمان وسذاجة فئة معينة من الشعب الذي يرزح تحت نوع معين من الحالة الاقتصادية والاجتماعية ... فتحرك موسكو هذه الفئة لاثارة القلاقل والشغب في البلاد تمهيداً لضمها الى مستعمراتها المترامية الاطراف ...

حقاًان الشيوعية ان هي الا افيون الشعوب الكادحة ، وسراب لأمثال هؤلاء السذج الذين يعتقدون بأن ارتفاع مستواهم الحياتي منوط بالاتحاد السوفياتي وان حريتهم واستقلالهم سيكونان في منأى عن الانهيار لو ان روسيا مدت لها يد المساعدة لتضمها الى الدول الدائرة في فلكها والرازحة تحت نيرها .

ويمر الوقت وتقبل الساعة الثامنة ، وتتجاوز الساعة التاسعة ، وبسّام لم يحضر بعد !...

مر اسبوع دون ان التقي ببسام او حتى يحضر للاعتذار!..
فداخلني الشك لعل حادثاً وقع له ، فهرولت الى ملحمته ، وهناك رأيته سالماً معافى ، وكان منهمكاً في عمله ، فرحب بي واجلسني على مقعد ، حتى انتهى من عمله ، فجاء اليّ وجالسني ، فبادرته بالسؤال عن السبب الذي قعد به فلم يحضر في الموعد المضروب هو ورفاقه ؟..

اجاب : ان المسؤول في الحزب نهاني عن الحضور ... حتى وعن الاجتماع بك .

ولما استوضحته قال : لانك رجل هدام !..

— هدام !..

— أجل هدام ، وخائن وعميل للاستعمار !.. ومن دعاة الحرب واعداء السلم !..

اجبته : ما اسخفكم واغباكم ، ان كل من لا يقف الى جانبكم وينفذ تعليمات موسكو تعدونه خائناً وعميلا للاستعمار!.. وانتم وحدكم وطنيون احرار !..

ان الدعاوة المسكوفية الضالة المضللة التي تثير الطبقات في المجتمع الواحد وتعدكم بالرغد والرفاه ، والعدل والمساواة ، اخذت تظهر حقيقتها بوضوح وجلاء ، ليرى العالم ويسجل التاريخ ان الاستبداد الفردي لم يكن في التاريخ يوماً ظالماً كما هو عليه اليوم في روسيا ، وان استغلال الاقوياء الكبار للضعفاء الصغار لم يكن في العصور الماضية اشد وادهى منه اليوم في الاتحاد السوفياتي .

واحتدم الجدال بيننا مرة اخرى ، بيد انني استطعت ان ادحض بحججي المدموغة وبراهيني العلميةالتي لا تقبل الجدل ، حججه التي يرددها كالببغاء كما تلقنها من رؤسائه ، والقائمة على نظرة مادية ممسوخة ...

وبدأ بسام رويداً رويداً يحوّل حدة هجومه وجداله الى دفاع واهنٍ ، وانتهى به الامر ، الى ان بدأ يأخذ ببعض اقوالي ويسلم جدلا ببراهيني واحاديثي ...

وشعرت انه يكاد يعلن انهزامه ، ولكني لم ارغب في ان احطم شعوره هكذا دفعة واحدة ، وذلك مما يؤدي في نفسه واعماقه الى رد فعل ، بل حولت مجرى الحديث الى جو آخر ... الى الماضي .. وذكرياتنا عن المدرسة ونوادرنا عن الزقاق ...

وقبل ان افارقه استطعت ان استل منه وعداً ليأتي الى منزلي لنتحدث بصورة اعم واوضح ... وودعته تاركاً ملحمته ، وما ان خطوت عدة خطوات حتى خطر على بالي سؤال ، وسرعان ما عدت اليه وكان في مقلتيه نظرات غريبة لم آلفها من قبل !!

نظرات ضال اهتدى !.. وضائع وجد الطريق !.. ونائم استفاق !..

قلت : بسام استحلفك بكل غالٍ وعزيز لديك هل تصدقني القول ان انا سألتك سؤالاً شغل تفكيري ؟...

فاقسم على ان يجيب صادقاً ..

قلت : هل انت الذي صنع ذلك الخطاب الذي لفظته

بالتظاهرة ؟! .

فقهقه وهو يجيب : لست الوحيد الذي سألني، لقد كذبت على الجميع وقلت انا الذي صنعته ولكن لن اكذب هذه المرة ..

وبعد برهة وجيزة من الصمت اجاب : انت ادرى الناس بي وبثقافتي ...

ـ اذاً من الذي صنعه لك ؟..

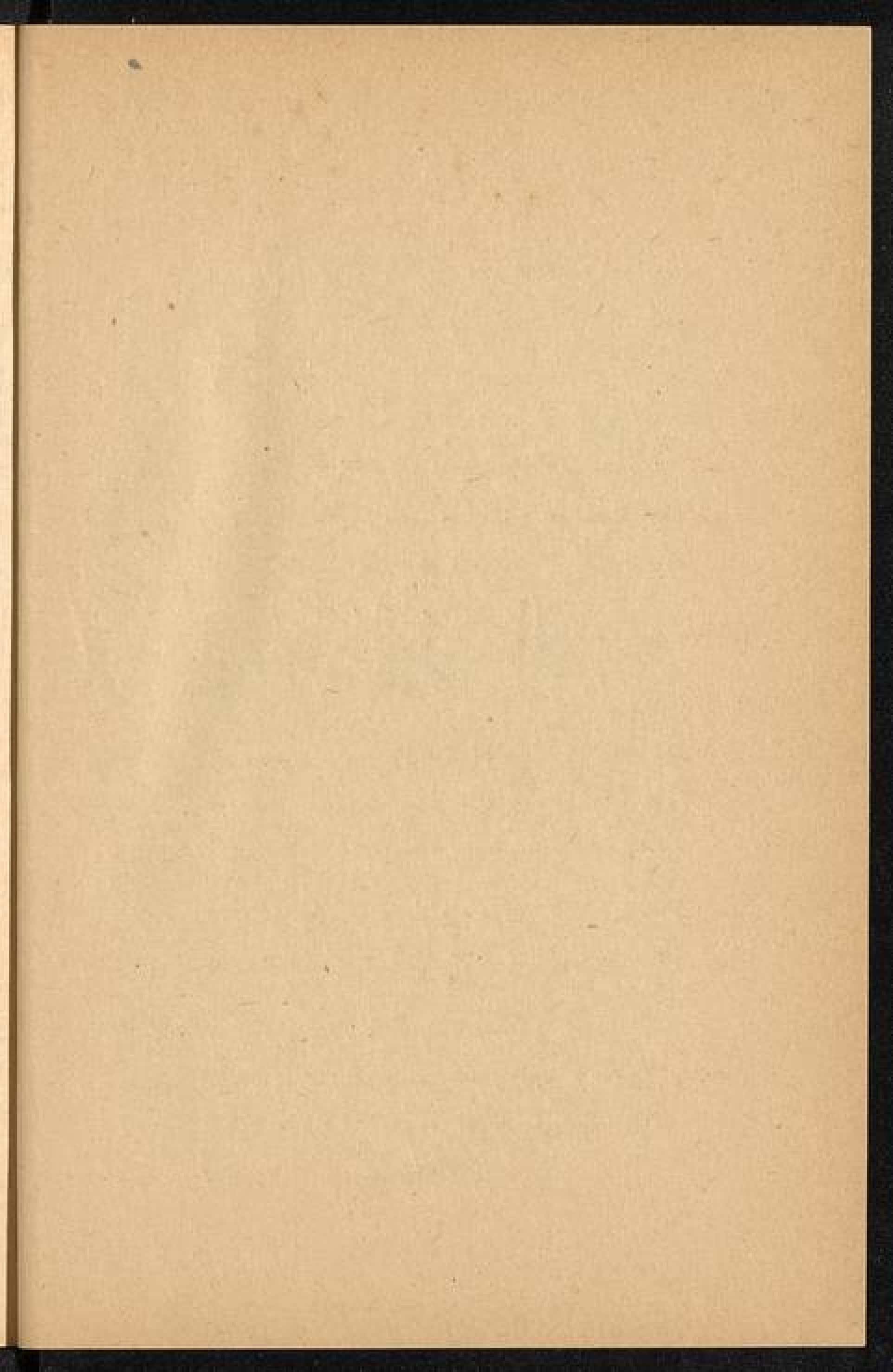
ـ لقد جلبه لي ودربني عليه الرفيق فؤاد، صديقنا القديم في في الزقاق !..

وراح بسام يلح عليّ بقوله : لمـــاذا خطر على بالك هذا السؤال فجأة ؟!.

اما انا فلم اجب بشيء .. انما بقيت في مكاني كتمثال قدّ من حجر لا احير جواباً او انبس ببنت شفة ...

ذلك لان صديقنا القديم فؤاد ما هو الا موظفاً في السفارة الروسية !!..

غفوة !..



لا لم اكن أراها ، بيد انني كنت اسمع نحيبها ونشيجها يأتياني من الغرفة المجاورة يصمان آذاني ، ويقضان مضجعي.. فهي ما زالت تبكي منذ ثلاثة ايام !..

اجل انحدرت ، ولكن لا ، لم اكن لاحلم انني سأصل بانحداري ذات يوم إلى هذا الدرك !..

لقد انقضى كل شيء ، ووقعت الفاجعة ، وهذا هو اليوم الثالث وانا سجين غرفتي لا اجرؤ على الخروج خشية من نظراتها الحزينة المرسوم في اعماقها بجلاء ووضوح كلمات الاتهام !..

نعم ثلاثة ايام وانا رهن غرفتي حزين باكٍ ، ولم يكن حزني اقل من حزنها ، فقد كنت ابكي بحرقة والم تكفيراً عما اقترفته يداي من اثم !...

كنت اريد ان اهرب من هذا الجحيم ولكنني لم اكن لاستطيع ، لانه كان عليّ ان امر في طريقي على غرفتها ، حيث تطالعني بملامحها الكئيبة وعينيها الباكيتين .

لذا جبنت ان اقف وجهاً لوجه حيالها، وفي نظراتها الاتهام الصارخ... فبقيت في غرفتي رهن المحبسين...

لقد انتهى كل شيء، اذ لم يعد ثمة امل لان اصلح وابني ما هدمته، فاين انا اليوم منه بالامس ؟.

* * *

... كانت حياتنا الزوجية جد سعيدة، اذ كنا نرتع في بحبوحة من العيش الرغيد، والحياة الرافلة باطاييبها وملذاتها. وكانت وحيدتنا هند تملأ ارجاء عشنا الزوجي باغاريدها المبهجة وهي تلثغ وتلوك الكلام، دون ان تحسن نطقه.

كما كنت موضع ثقة تجار السوق، استطيع ان استدين حوائجي من شتى انواع القماش فكان دائني يهبوني ما اريد دونما تلكؤ او خوف، لانهم امنوا معاملتي وانسوا الى حسن استقامتي، لانني كنت احاسبهم في نهاية كل اسبوع دون تأخر او تقاعس. وكان متجري الصغير يتقدم بخطوات حثيثة، ويتسع يوماً بعد يوم، فيقبل عليه الزبائن زرافات ووحداناً.

وعندما مرضت زوجتي، مكثت بقرب سريرها اسبوعاً كاملاً لا يعرف النوم سبيلاً الى حدقتيّ حتى تعافت، فعدت الى مزاولة اعمالي وقد آل ذلك الى مضاعفة حبنا.

كنت قد درجت على عادة، فما ان اغلق متجري حتى اهرع تواً الى المنزل بشوق فائض لاقضي اسعد ساعات العمر في جوّ عائلي سداه الحنان الجياش، ولحمته العطف والحب المتبادل وهناك في زوايا البيت كنت الاعب وحيدتي هند، فنقضي معاً

اوقات طويلة نتناغى ، ونضيع في نشوة ما بعدها نشوة .

كانت حياتي العائلية حتى ذاك الوقت جد سعيدة لا يعكر صفوها شيء ، حتى حدث ذاك الحادث الذي قلب حياتنا رأساً على عقب .

* * *

كان الوقت مساء عندما اقتحم متجري اربعة شباب في يد احدهم ورقة طويلة تدلت حتى لامست ركبته .

قال حامل الورقة : الا تريد ان توقع يا سيد ، على نداء انصار السلم ؟

فاجبته : ما الفائدة من التوقيع عليها ؟..

فبادرني رفيقه : لنسلم من عاقبة الحرب واهوالها ،(فنحافظ) على بيوتنا من التهديم وعلى اطفالنا من الجوع والتشريد والموت الزؤام ...

– الا توقع ؟..

وتراكضت امام عيني كقصف الرعد صورة عن اهوال الحرب ..

... لا لم اكن قد هبطت هذه الغبراء بعد عندما وقعت الحرب العالمية الكبرى وان كان المرحوم والدي يقص عليّ جانباً من اهوالها وكيف كان ملاك الموت يسير جنباً الى جنب مع الشعب ، فآلاف الاطفال يموتون جوعاً وليس من يرحم ، ومن بينهم اخواي الكبيران اللذان ما ادركتهما ، فقد اصابهما كما اصاب الكثيرين مرض موبؤ تفشّى في سني الحرب ، وراح يفتك بالجماعات

الآمنة فتكاً ذريعاً !.. وكيف لحقت بهما والدتهما ، زوج والدي السابقة !..

وقفزت كوميض البرق صور عن الحرب فيما لو وقعت ، وكيف ستبكي ابنتي هند وهي جائعة ولا املك شيئاً اسد به رمقها وادفع عنها غائلة الجوع وقد هدمت القنابل منزلنا الصغير ، واتت على متجري ، وشردتنا نحن الثلاثة ، وها هو الموت يهيمن فوق ربوعنا باجنحة اين منها اجنحة الغربان الناعبة السوداء ونحن مشردون بلا مأوى ولا طعام !..

– الا توقع يا سيد ؟!.

– اجل !.. وكيف لا !.. ولي طفلة اعبدها ، وزوج احبها بكل جوارحي ، ولا اريد ان تفتك الحرب بهما .

– اذن وقع...

قالها احد الشباب وكان يعقد في عنقه ربطة حمراء – ويدعى حامد كما عرفت بعدئذ – مفتراً ثغره عن ابتسامة غريبة لم ادرك لها معنى .

ووقعت !..

وحامد صاحب الربطة الحمراء يتبسم ... وانا جذل فرح ، اظن انني قد دفعت بذلك اهوال الحرب عن اسرتي ، وانني انقذت هنداً من الموت المحتم !..

وكان اليوم الثاني ، وانا منهمك في عملي ابيع الزبائن واحاسبهم ، فاذا بي القي نظرة على باب المتجر ، فارى حامد صاحب الربطة الحمراء واقفاً هناك ، وفي يده صحيفة ، ما لبث ان

اقترب مني والابتسامة الغريبة ذاتها ما تزال على شفتيه ، وقدّم لي الصحيفة وهو يقول :

انها جريدة (حرة تدافع عن السلم ، وتنطق باصوات الملايين ضد من يحملون الدمار للبلاد) !..

وعندما اردت ان انقده ثمنها ، ضحك وتمتم وهو يقول : انها هدية ، واملي ان تقرأها .

* * *

– مالك الليلة لا تتكلم ؟... لقد استحوذت هذه الصحيفة كرّة اخرى على ناصية تفكيرك !..

وازاحت زوجتي الجريدة التي كانت بين يدي فنفرت منها وانا ابادرها القول : دعيني بحق السماء فأن فيها ما ملك عليّ جماع لبّي !..

فحدجتني بنظرة عاتبة زوراء وقالت : لك اسبوع تقرأ في هذه الجرائد التي تحملها معك في كل مساء بحيث اصبحت تشغلك كل ليلة عني وعن ابنتنا هند !..

اما انا فكنت اقرأ دون ان اعيرها اذناً صاغية ، او اداعب هنداً شأن عادتي من قبل !..

فقد كان (حامد) يحمل اليّ يومياً صحيفة ، ولا يأخذ ثمنها !.

ثم راح مع الايام يختلف الى متجري فيجالسني ويحادثني ، ويوضح لي بعض النقاط الغامضة ، مفسّراً (المؤامرات) التي تحاك ضدنا ويستفيض في تبيان (الخطر) المتحفز الذي يهدد بلادنا . فكنت اصغي اليه بكليتي !..

ومع الايام بدأ حامد، يحمل اليّ كتباً ومجلات ، ثم بدأ يعرفني على نفر من اصدقائه من (انصار السلم) ،وكان يقدمني اليهم مسبغاً على اسمي القاباً لم اكن احلم ان اسمع مثلها في حياتي .

وبعد ايام ، دعيت لحضور اجتماع (لانصار السلم) فلم امانع. وشيئاً فشيئاً بت ادرك اموراً لا قبل لي بها ، وتفتحت عيناي على مجالات جديدة ...

اما حياتي العائلية فقد تبدلت ، وطرأ عليها الفتور اذ اصبحت اهتم (باخبار السلم) اكثر من اهتمامي باسرتي وعملي !..

وتبع ذاك الاجتماع اجتماعات اخرى تعرفت خلالها على الكثيرين من افراد هذه المنظمة (الانسانية) الذين كانوا يبدون لي من الحب والتقدير ما كان ينفتح له فؤادي وتطيب له نفسي .

ومع الايام تحول حبي لهذه المنظمة الى هوس وجنون ، فبتّ اهمل اعمال متجري ، وواجباتي المنزلية !..

وحيال اندفاعي هذا وقع الاختيار عليّ للسفر برفقة وفدالى برلين لحضور مؤتمر عالمي (لانصارالسلم واتحاد الشبيبة العالمية...)

وفي برلين رأيت مابهرني وجعلني اؤمن بهذه المنظمةالعالمية ايماناً راسخاً لا يتزعزع . وعندما عدت الى بلادي اسرعت الى حامد ، وطلبت اليه ان يسجلني عضواً في هذه المنظمة !..

ونزلت بدوري الى الشارع اجمع التواقيع من المواطنين ، وانا فخور بما اقوم به من عمل (انساني) مؤ مناً بأننا اصبحنا من النصر على قاب قوسين او ادنى ، وقريباً سيتحقق النصر لمنظمتنا فنحتل عندئذ احسن المراكز ، ولن تبقى بنا حاجة للمال .

وسرعـــان ما عهد اليّ بمسؤولية في هذه المنظمة فترأست احدى خليّاتها ، وكان عليّ ان اختلط بالاعضاء ، وان احدثهم عن السلم ومضار الحرب ومشاهداتي في برلين ، مهملاً اسرتي ومتجري !. ثم لم افتأ ان طلبت الى زوجي ان تصبح عضوة في المنظمة ، فنزلت عند رغبتي ...

ولاول مرة في حيـاتي القيت خطـاباً ساعدني في اعداده حامد ، بعنوان : « موسكو دعامة السلم العالمي » !..

وشيئاً فشيئاً بدأ الزبائن ينفرط عقدهم عن مخزني ، اذ اخذوا يشاهدونني ومن حولي افراد منظمتي ، فكنت لا انتبه الى البيع والشراء ، والى كسب ودهم ليستمروا في الاقبال على متجري بقدر الاستماع الى احاديث رفاقي ...

وامسيت لا اعود الى المنزل الا في ساعة متأخرة من الليل بعد ان تكون زوجتي وابنتي قـد اوتا الى فراشهما ، وهمـــا منهوكتان من السهر بانتظاري .

وذات يوم سألتني زوجتي في الصبـــاح عن سبب تأخري المستمر ، فثرت في وجهها حانقاً وطلبت اليهـا عدم التدخل في شؤوني الخاصة ...

كنت اتبرع لمؤسستي ، ولاعضائها الفقراء ، ما وجدت الى ذلك سبيلا ... معللاً النفس بدنو موعد النصر ...

وبدأت احوالي المادية تسوء ، وفقدت ثقة التجار ... بيد ان ذلك لم يكن ليهمني ما دمت قد كسبت ثقة منظمتي !..

ومرضت زوجتي فلم يكن لديّ الوقت للسهر الى جانبها ،

فاكتريت لها ممرضة راحت تسهر على صحتها ...

وفي الآونة الاخيرة ما عدت افتح متجري الا في ساعات قلائل..

واخيراً اصيبت ابنتي هند بمرض عضال ، وكانت وهي في اشدّ ساعات مرضها تطلبني فلا تجد لي ظلاً ، لانني كنت مشغولاً عنها بعقد الاجتماعات والقاء الخطب..

وذات فجر عدت لالفي زوجتي باكية ناحبة ، وعندما استوضحتها الامر ، علمت بان ابنتي هند تعاني سكرات الموت ، واذا بزوجتي تركع على قدميّ باكية ناحبة ترجوني ان افيق من غفوتي واعود الى سواء السبيل ، نابذاً هذه الطريق الوعرة .

ورغم ذلك لم اصغ اليها .

وفي اليوم الثاني كنت في احد الاجتماعات ، حين جاءني من يحمل الي الخبر الرهيب ، فعلمت ، ويا لهول ما علمت : بان هند ، وحيدتي هند قد فارقت الحياة !!!

وكانت صدمة قوية على اعصابي ، صدمة افاقتني من كبوتي..

* * *

وها انذا في اليوم الثالث بعد ان وارينا الثرى جسد هند في غرفتي لا اود الخروج ، ثلاثة ايام دون ان يحضر خلالها احد من منظمتي لتعزيتي !... حتى حامد .. حامد ذاته لم يحضر !.. لقد تخلوا عني جميعاً عندما علموا انني قد لامست الحضيض بعد ان تركوني هيكلاً ... لقد دفعت الثمن ... وكان جد غالٍ ، وشعرت لاول مرة انني انحدرت الى هوة سحيقـــة الغور

لا قرار لها ، ومن حضيضي رحت انظر الى حيث كنت احلق ذات يوم : لقد انتهى كل شيء!.. قذفتها شفتاي بيأس ...

لا ، لم اكن لارجو ان ابلغ بانحداري ذات يوم هذا الدرك... فقداحسست لاول مرة ان اقدامي قد لامست التراب... وآن الآوان لالقي عن كاهلي ذلك العبء الذي رزحت تحته ردحاً من الزمن ... وحان الوقت لاستيقظ من كبوة غفوتي واثوب الى رشدي ، وانفض عني تلك الاوشاب ، لانعتق من ربقة عبودية الاغلال ، واصعد ثانية الى حيث كنت ...

فقد داخلني شعور أن ما مر بي لم يكن الاغفوة طيش ، وهفوة دفعت ثمنها غالياً ... وغالياً جداً : وحيـدتي هنـد ! .. ومستقبلي ! ..

حقاً عندما يشعر المرء ان اعقاب قدميه قد لامستا الحضيض ، يحاول الصعود ... ولكن قلما يكتب لقفزته هذه التوفيق ...

التهديم ، والانحدار ... هينان . اما البناء والصعود ... فجد صعبين ...

فهل بمقدوري واستطاعتي ان اصعد وابني ما هدمته ؟..

اجل عليّ ان احاول ... قلتها باصرار وعزيمة ...

وبعد ساعة خرجت من عزلتي ، وعندما مررت بغرفة زوجتي طالعتني بوجهها الباكي وسألتني والغصات تقطع نبرات صوتها : الى اين تروم الذهاب ؟ ...

فوقفت في مكاني صامتاً لا احير جواباً . فاكملت وهي تنشج وتنتحب : ام انك لم تتعلم بعد ؟ ... وتروم ان تتمم ما

فاتك ؟ ...

وبكلمات كلها ثورة وعزيمة : ثورة على الماضي ، وعزيمة لما اروم الاقدام عليه بالمستقبل قلت : سأتخلص من كل شيء !..

فأجابتني باكية ملتاعة : تتخلص ؟.. بعد ان انتهى كل شيء ؟..

فاجبتها وكلي ثقة بما اقول : كلا لم ينته شيء ، فمن اليوم سأبدأ ومن هنا سأنطلق ...

* * *

وفعلا استطعت ان ابدأ من جديد ، وان استعيد رويداً رويداً مكانتي السابقة في السوق ، وكنت قد استطعت ان اتخلص من منظمتي الهدامة ، فقد اقبل الى متجري حامد كرة اخرى ، بابتسامته الغريبة ، وربطة عنقه الحمراء ليعهد اليّ بمهمة حزبية جديدة كما كان يصنع في السابق ...

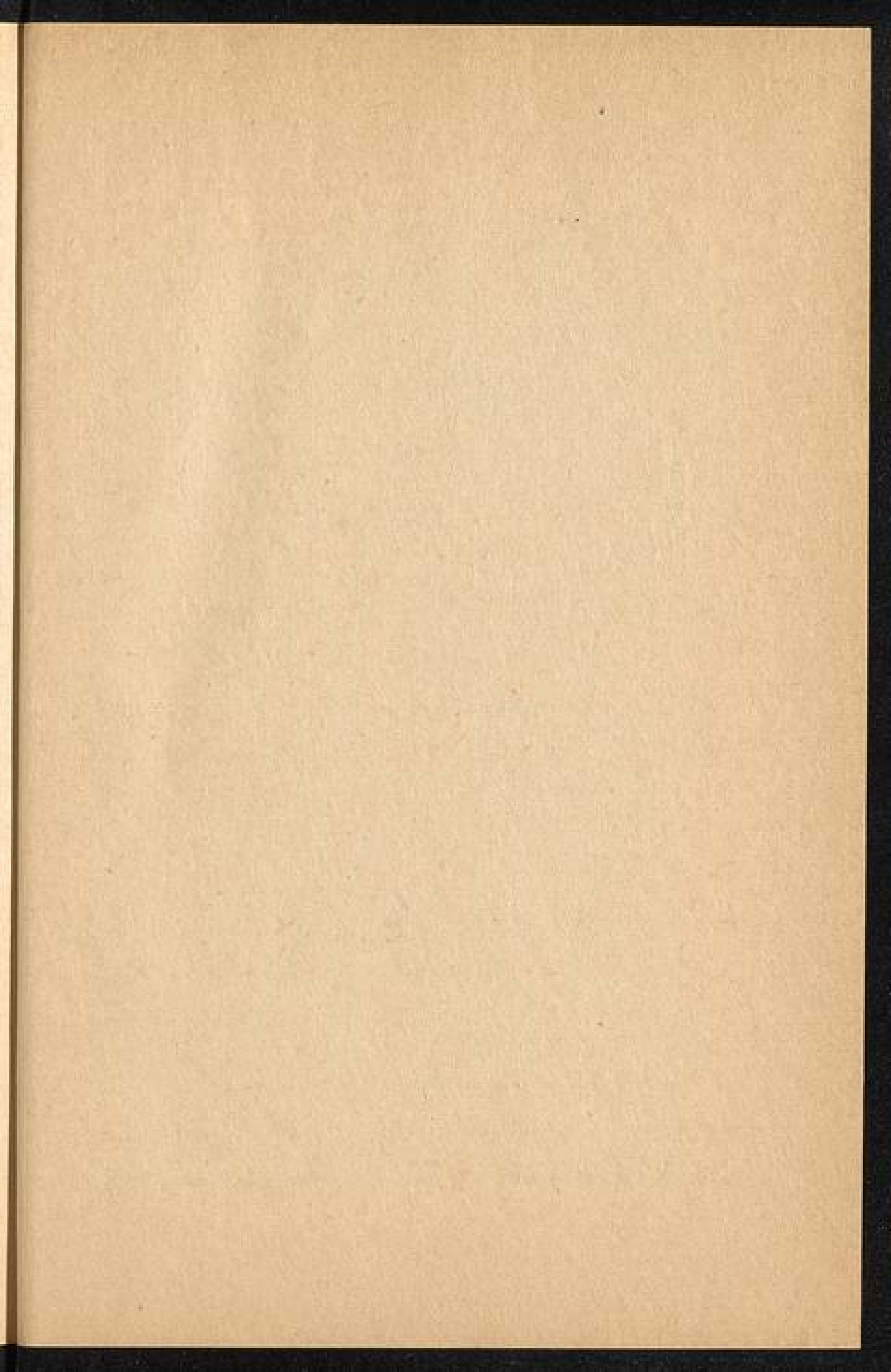
لقد ادركت لاول مرة معنى تلك الابتسامة الصفراء التي بقي معناها غامضاً عليّ طوال تلك الحقبة من الزمن ... فقد كانت ابتسامة شيطان مريد ، فطردته من متجري شر طردة !.

فاذا به يبادرني قائلا : لقد اصبحت عميلا للاستعمار ومن انصار الحرب !..

فقلت له هازئاً : لا ، ولكنني كنت ضالاً ، فوجدت نفسي ... ونائماً ، فصحوت من غفوتي ...

للأفيون !..

صورة تحليلية



لا ، لا ، انك لا تعترف بالواقع ... او لعلك لا تـدرك الحقيقة ... او ان الحيلة قد انطلت عليك ايضاً ؟ ... فاصبحت عرضة لان تجرفك الدوّامة الحمراء الى اغوارها السحيقة، وتضيفك الى ضحاياها الكثر ؟ ...

لا يا صديقي انك لا تدرك بعد اهداف هذه المبـــادىء المستوردة ، فمن يبهر بريقها بصره لا يستطيع ان يغوص الى اعماق مآربها وغاياتها الاستعمارية .

وبعد فأنت حدث لا تعي الاساليب الخبيثة التي يتبعونهـا فينفثون سمومها القتالة في النفوس البريئة من ابناء شعبنا الطيب بحيث يمسون جسداً بلا روح ، ويتحولون مع الايام الى دمى ، بعد ان تخدرهم بسمومها ...

انها كالافيون ، وشيء اخطر من الافيون للسذج من ابناء شعبنا الفاقد الثقة بنفسه وبامكانيات امته العربية ... فتنجرفون في الدوامة لتصبحوا طلاباً في مدرسة الخيانة دون ان تدركوا

او تعوا ...

قلت : ان اسياد الكرملين (يدفعون) عنا ربقة الاستعمار (ويرفعون) بهذه المبادىء من شأن الفرد ! ! ...

كلا يا صديقي فقد اكدت الحوادث والاحداث ان الاستعمار السوفياتي لاشد واخطر انواع الاستعمار او الاستعباد قسوة ووحشية في العالم منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، ناهيك عن انه لا قيمة للقوميات والاديان والامم واللغات ، ومكانة للفرد والعامل في فلك اسياد الكرملين الحمر ، وعالم الاتحاد السوفياتي ...

وقد داخلك انت ذاتك انها مبادىء بناءة ... لا يا اخي انها مبادىء هدامة : ان المبادىء البناءة يا صاحبي تبني النفوس ، اما المبادىء الهدامة فتهدمها ...

خذ مثلاً : باسم خربوط ، ماذا صنعت له هذه العقيدة؟.. أولم تهدمه ؟ .. اولم يفقد ابنته ويغلق متجره ؟ .. وتهبط اسهمه في السوق فلا يأتمنه احد على شيء ؟ ! ...

وخذ مثلاً آخر : فاتح المنيدي ، صديقنا ... اجل صديق الطفولة فاتح ... من منا لم يكن يحسده على مركزه ومكانته الاجتماعية التي كان يتبوأها حتى انضوى تحت لواء هذه المنظمة المخربة ، اجل ، انت تعلم كيف انهار واصبح مهزلة لكل هازل من صحبه ، وهو اليوم طريد العدالة ، ولا يعلم الا الله اين هو ، بعد ان فقد كل شيء !..

ثم سلمان الفران ... سلمانُ عبد الجبار ... الا تعرفه؟... اواه ... ظننتك تعرفه ! !

فهل هناك احد في حي (باب الشيخ) يجهل الفران سلمان عبد الجبار ؟!. فهو فيلسوف الحي الساخر ، فالنكتة الحلوة كنت دائماً وابداً تجدها على لسانه تسيل من فيه ببداهة سريعة وخفة ظل ، فيضحك سامعيه حتى على انفسهم ، وكان لا يمر بشيء الا ويجد فيه موضوعاً للتفكه والتندر ، وان لم يكن مظهره يدل على روحه الكثيرة المرح والسخرية ، فهو قصير القامة نحيل الجسم ، سريع الحركة ، لا يعير باله لهندامه ، اسمر الوجه ، ضامر الخدين ، ذو عينين سوداوين ينبعث منهما بريق غريب . ولو ان والدي سلمان كانا ميسوري الحال ، فيرسلانه الى المدرسة ، لكان اليوم في مصاف الفلاسفة الساخرين ، او الصحفيين ذوي الاسلوب اللاذع ، ولكن ما حيلته وقد نشأ في بيئة يكتنفها الفقر والجهل والمرض ، وما ان شب على الطوق حتى احس انه ضائع في قرية (النعمانية) ، فهجرها الى العاصمة حيث تمكن من الظفر بعمل في احد افرانها وكان ذلك منذ اعوام تتجاوز الربع قرن استطاع خلالها ان يتزوج وان ينشيء اسرة مثالية ، وكان يقوم بعمله اليومي بجد وحيوية ونشاط لا يحد ان ، واستطاع من وراء جهاده المستمر ان يصبح صاحب فرن في (حي الرصافة) ...

وكثيراً ما كان يحلو لي ان اختلف الى داره برفقة الجيران فنقضي لديه سهرات لذيذة نستمتع خلالها الى نوادره الفكهة ، ونستغرق جميعاً في عاصفة عاتية من الضحك الصاخب ... او ندعوه لمجالستنا اذا اتفق ومر امام داري او دار احد الجيران ، ونحن جلوس نتسامر بعد اوبتنا من اعمالنا ، ويكون بدوره

عائداً من عمله فيجلس ، وسرعان ما نفسح له مجال الحديث . فيتحدث ويمضي الوقت دون ان نحس كيف مر او انقضى ...

وكنا في كل ليلة نسهر لدى احد الجيران ، ويكون لولب الحديث وفاكهة السهرة سميرنا سلمان فيروي لنا الاقاصيص ونحن نصغي اليه بشوق ولذة واعجاب ، وتجتاحنا بين الفينة والاخرى موجات من الضحك ...

ثم لا يفتأ ان يطالبه احدنا ان يقص علينا ذكرياته عن قرية النعمانية وكيف هجرها الى غير رجعة ، ورغم ان كل واحد منا قد استمع الى قصة حياة سلمان عشرات المرات فقد كان بنا شوق دائم للاستماع الى هذه الحكاية الطريفة المرة تلو المرة ، ففي كل كرة كان يكتشف سلمان ناحية لاثارة قهقهاتنا .

فيقص علينا كيف تضارب يوماً ووالده امام جمع من وجهاء القرية ، فضربه والده حتى اغمي عليه ، لانه سخر من مختار القريه بين شرذمة من رفاقه ... فنزح الى العاصمة ، وكد وجاهد وسهر الليالي المضنية ، دون ان يعرف التقاعس والخور الى نفسه سبيلاً ، وجمع الدرهم الى جانب الدرهم ، بحيث استطاع ان يبتاع بعد جهد وكد شاقين طوال اعوام ، الفرن الذي كان فيه صانعاً ...

فيمسخ سلمان قصة حياته ، وحوادثها واحداثها واشخاصها بحيث نستلقي على ظهورنا مقهقهين ، ولا ينفصم عقد سهرتنا الا عندما تعلن الديكة انتصاف الليل ، فيهرع كل منا الى فراشه جذل فرح وينام والابتسامة عالقة على شفتيه ...

على هذه الصورة قضى فيلسوف حينا الساخر سلمان شطر حياته ، مجاهداً ، في فرنه مكافحاً في الحياة ، يحاول قدر استطاعته ان يوفر لاولاده الثلاثة حياة كريمة عزيزة ، وكلما ظهرت في طريقه عثرة كأداء لتعكر صفوة حياته ، عالجها بحكمة ودراية والابتسامة لا تفارق شفتيه ، وان استوقفه شخص يسأله عن حاله ، فقد كان يجيب والبشر والسرور يطفحان من وجهه : احمد الله على هباته وخيراته ... الدنيا بالف خير ...

هكذا قضى حياته راضياً عن عيشه شاكراً مولاه على ما يدره عليه من رزق وخيرات .

ومع الفجر كنت اراه يهرع الى مسجد الحي ليقوم بواجباته الدينية ، ومن ثم يذهب الى عمله ، فكنت ارى فيه مثالاً حياً للمواطن الصالح الذي يعمل عملاً منتجاً ، وينشيء اسرة اجتماعية صحيحة ...

وفجاة شعر جميع من في الحي ان انقلاباً غريباً قد وجد طريقه الى نفس واخلاق وتصرفات سلمان !.. فلم يعد يتخلف مع الفجر الى المسجد !.. واحسسنا نحن جيرانه الذين كنا نقضي السهرات تلو السهرات معاً ... بفتور احاديثه ، وتغيير مواضيعها اذ اخذ يحدثنا عن اشياء غريبة غير تلك التي كانت لولب سهراتنا العذاب في السابق !!!

وتعمدنا ذات امسية ان نزوره جميعاً .. لنستوضح عن سر هذا التبدل الغريب ، فقلب حياته ، وغير نظرته للاشياء وانتزع تلك الابتسامة المرحة من على شفتيه ، فانبرى يحدثنا عن شيء

يدعيه بأنه (مبادىء انسانية بنـاءة) تحمل (الخير في ركبهـا للبشر جمعاء) !..

وكانت احاديثه محشوة بالنقمة والثورة على الوضع الاجتماعي في البلاد !..

فهو لم يعد يرضى بهذه الحيـاة التي يحياها ، انما بات ينشد حياة اخرى ، وراح يسهب في وصف هذه الحيـاة الاخرى ، (والعدالة والحرية والمساواة) التي (ستحققها) هذه المبادىء . (فترفع) من مستوى الفرد الى (ذروات) لا يحلم بها ...

وانهى حديثـه مستبشراً يؤكد ببزوغ هذا (الفجر الجديـد) الذي سيعم (نوره) العـالم !... ويضم تحت لوائـه جميع افراد (المجتمعات) في المعمورة ، ما دامت روسيا تلك الدولة الجبارة تغذيه بالروح والمادة (وتساعد وتساند) الشعوب التي تريد ان تطبق هذه المبادىء في بلادها ، فتمدها بالسلاح والمـال والجنود والتعليمات ثم لا تفتأ - للمحافظـة عليهـا - ان تضمهـا الى الدول الدائرة في فلكها !!.

وطالبنا في آخر (محاضرته القيمة) وحثنا على الانضمام الى (موكب منظمتهم الصاعد) الذي اصبح منذ امد قريب عضواً عاملاً فيها ، والتي ما وجدت الى (لرفع) مستوى الطبقة الكادحة العيشي ، فتوزع (العدل) بين افراد المجتمع بحيث لا يبقى ظالم او مظلوم !... واذا لم ننضم اليهـا فنحـن احد امـرين :

اما اغبياء سذج ، او عملاء للاستعمار !!.

فلم يرض او يوافق احدنا على فكرة الانضمام لمنظمته ...

انفصم عقد سهرتنا في تلك الليلة ونحن في اضطراب مبين من امر سلمان ...

وتمر الايام ويحاول خلالها سلمان الاتصال بكل فرد من جيرانه على حدة في امل ان يستميله الى منظمته ، ولكن كان مصير محاولاته الفشل الذريع ...

وعندما وجد سلبيتنا وعدم اقتناعنا بمثل هذه الاوهام ، لم يعد يجالسنا او يطيب له ان تذهب اليه للسهر كعادتنا المحببة ، وبات لا يحضر السهرات التي كنا ندعوه اليها !.. فقد تغيرت نظرته تماماً للحياة ، واصبحت احاديثه مقتضبة جافة او محشوة بالبغضاء والنقمة على من يسميهم (الطبقة الارستقراطية). وتلك المحبة التي كان يكنها في اعماقه لكل فرد من الجيران تحولت الى فتور وبرود تظهران بجلاء ووضوح من احاديثه ونظراته وتهربه من تأدية التحية ، التي ان اضطر لتأديتها ، فقد كان يؤديها للمجاملة فقط ، فكأنه امسى يرى بنا اناس اقل منه مكانة وتفكيراً !..

وكان ذلك آخر عهدنا بسلمان وجلساتنا معه ، وان كنت كثيراً ما اشاهده يمر بجانب نافذتي مسرع الخطى شاحب الوجه تائه النظرات ، قلق الافكار ، وقد اختفت تلك الابتسامة المشعة عن محياه ، تاركة مكانها عبسة قاتمة غضوب ، فخيل لمن يراه انه يحمل على منكبيه كل ما في الوجود من هواجس وهموم .

وقد كان لتصرفاته الشاذة هذه أن اخذ اصدقاؤه وجيرانه بالزقاق يبتعدون عنه الواحد تلو الآخر ، وينفرون من احاديثه ..

كما ان سلمان ذاته راح ينفرد عنا ليعيش مع جماعة مستقلة تلاعبت بافكاره ودست سمها في عروقه ، فامسى يعيش بهذه الافكار التي خدرته كالافيون .

وتمر الايام وتتبعها الاشهر ، وتعقبها السنون...

وقد تسألني يا صديقي ماذا حققت له هذه المبادىء طوال هذه الحقبة من الزمن ؟..

كما اتساءل بدوري ماذا حققت له، او لهؤلاء السذج الضالين من ابناء شعبنا الذين جرفتهم الدوامة الحمراء ، فانضووا تحت لوائها منذ اعوام طوال ؟..

كلا يا اخي لم تحقق لاحد منهم اي شيء ولم ترفع من مستواهم العيشي ، انما زادتهم انحداراً وفقراً وتعاسة ، وضخمت هذه المبادىء الهدامة في اعماقهم جذوة الحقد والكراهية على الفئة الناجحة في المجتمع وامعنت في تهديم نفوسهم واخلاقهم ومكانتهم الاجتماعية !!.

وهذا مثل حي ، سلمان ، انظر اليه بعد اعوام خمسة من انجرافه في تيار هذه العقيدة الهدامة ، اتدري الى اي درك آلت به الحال ؟... لقد ابتعد زبائنه عنه الواحد تلو الاخر بعد ان فقدت شفتاه تلك الكلمات المرحة ، وتلك البسمة الصافية ، التي حل محلها شيء اشبه بالسم الزعاف ينفثه في وجه زبائنه وجيرانه، كما وركبته الديون بحيث بات يشعر ان اسرته امست عالة عليه ، وانغمس في هذه البؤرة الفاسدة ، حتى اكتنف حياته التخاذل والخور الكسول .. فاضطر لان يبيع فرنه الذي جمع ثمنه بكد

وجهد السنون !..

اما اسرته البائسة ، فانها طفقت تبيت سواد لياليهـــا على الطوى ، وقد تحول مع الايام كوخهم الهادىء الصغير الى جحيم مستعر الاوار لا يهدأ او يستكين والى سلسلة مستمرة من الخصام والنزاع ، ورغم ذلك فما زال يسلك تلك الدروب الوعرة دون ان يصحو من غفوته ، او يعود الى محجة العقل والصواب ويثوب الى رشده ، الى ان فقد زوجته متأثرة بمرض عضال !.. وتشرد اولاده كل في بلد بعيداً عن اخيه ، وعن المنزل الذي تربى تحت سقفه : عبد الفتاح هاجر الى الكويت ، وشكرى مجهول الاقامة ، اما راجية فأنها تخدم في احدى البيوتات !..

اما هو فقد تشرد في الشوارع نهباً للفاقة والبؤس والشقاء ، وكان كالشمعة تنوص ايامه ويذوب جسده تدريجيـاً ولم يمر عليه وقت طويل حتى اصيب بداء الصدر ، فاخذ ينفث رئتيه دمـاً ينذر بدنو الاجل ! وفي احدى التظاهرات القي القبض عليه ، ولا يعلم الا الله في اي سجن هو الان ؟ وماذا حل به !..

* * *

اجل يا اخي هذه قصة سلمان عبد الجبار رويتها لك دون زيادة او نقصان ، وهي قصة عشرات من امثـاله من المواطنين السذج الذين جرفتهم تلك العقيدة ، بعـد ان ادخلت في روعهم انهـا المنقذ ... وسترفع من شأنهم ومكانتهم ... فاذا بها تزيدهم انحداراً وانزلاقاً ...

واكثر ما اخشاه يا صديقي ان تجرفك هذه المبادىء ذات

المظهر البراق التي ما هي الا ظل اسود للغيمة الحمراء العالقة في سمائنا مترقبة اللحظة الحاسمة لتنفجر وتنهمر ناراً ودماراً ، زارعة انى عبرت افانين الجرائم وضروب الكفر والزندقة الفكرية .

ويمرح في عتمة هذا الظل الاسود جماعة من المهووسين والمأجورين والناقمين الذين جرفتهم الدوّامة الحمراء لتجعلهم طلاباً في مدرسة الخيانة .

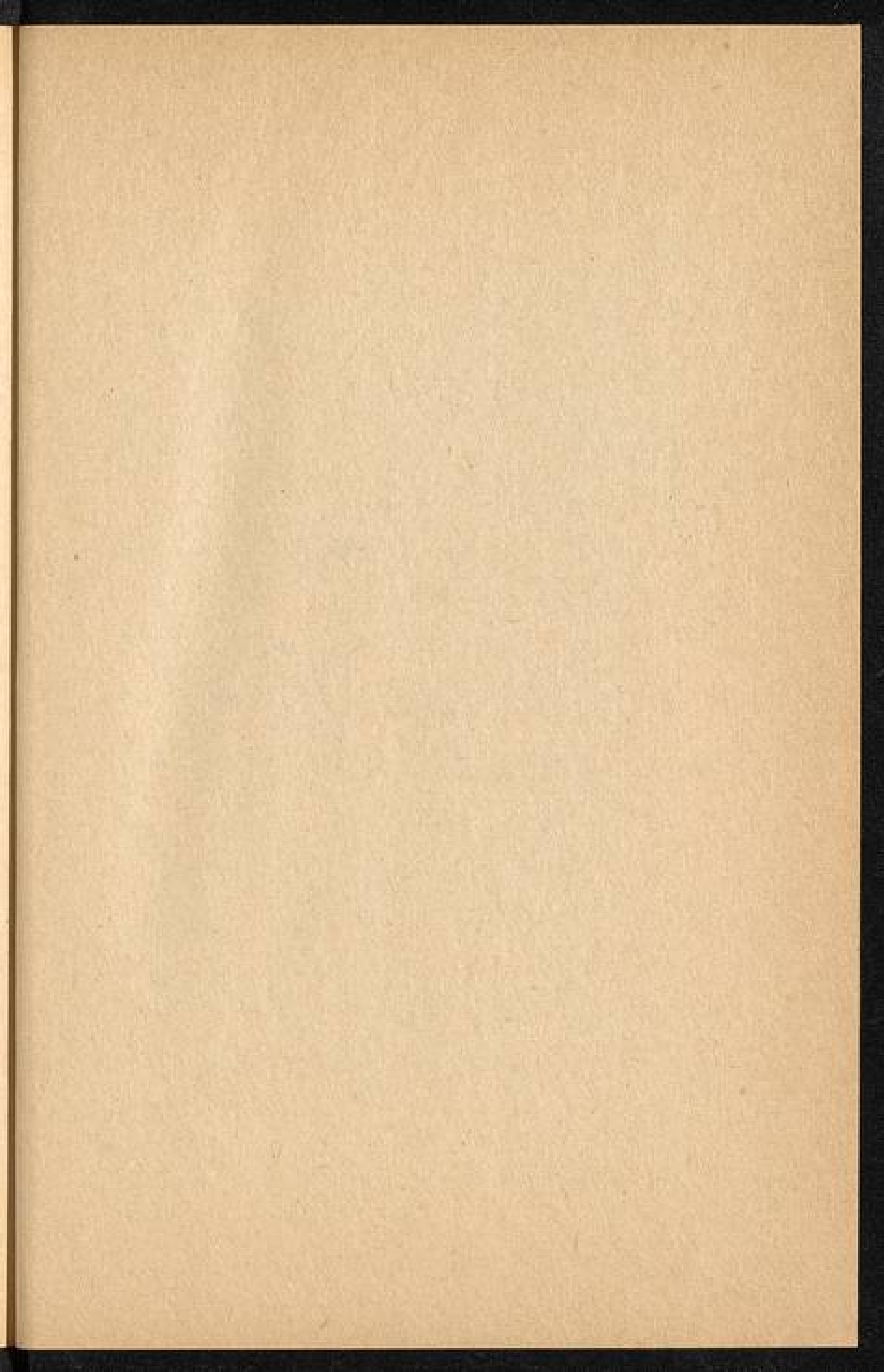
وثمة فئة اخرى جرفتها الدوامة يا صديقي ، وهي فئة مخلصة بين المواطنين جاءت تجرب هذه المبادىء املا بان تجدها مليحة فخدرتها بافيونها وبهرتها بمظهرها ، فتعلقت بهذا القطار المزركش البراق المسرع نحو الهاوية !..

هذه هي يا اخي حسنات هذه العقيدة الهدامة التي جرفت الكثيرين ، وتريد ان تضيفك الى ضحاياها .

سبق ان قلت لك : ان العقيدة البناءة تبني نفوس اصحابها ، اما العقيدة الهدامة فهي تهدم في النفوس كل القيم الاخلاقية والمناقب الروحية ، وحب الصراع نحو الافضل والاجمل والاكمل ...

اراك ساكتاً لا تحير ... هل قلب كلامي افكارك رأساً على عقب ؟.. ألا تسلّم الآن معي جدلاً بان **الشيوعية ما هي الا افيون الشعوب الكادحة ؟!..**

حَدَثَ ذاتَ ليلةٍ !..



لقد سمعت هذه القصة الطريفة ذات ليلة ساهرة في احدى البلدان الساحلية ، بيد أن محدثي رجاني الا اذكر اسم البلدة ، وطلب الي أن اتلاعب باسماء ابطالها ، فيما اذا رغبت باخراجها للنور ... ولذا حققت رجاءه ...

* * *

ما ان حل سميي الرفيق (طلعت منيف) في بلدتنا الساحلية الصغيرة برفقة شقيقته الرفيقة (سعاد) ، حتى استأجرنا لهما منزلاً في ضاحية البلدة ، ورحنا نتبرع نحن بأثاثه ، بحيث اصبح فيه بعض الفرش ، فقد كانت حالتهما المادية تظهر بوضوح وجلاء من الثياب الرخيصة التي يرتديانها ، والطعام البسيط الذي يتناولانه ، وكثيراً ما كانا يكتفيان في نهارهما بوجبة بسيطة من النواشف ، الامر الذي حز في نفسي ونفس الرفاق كثيراً فرحنا ندعوهما باستمرار كل يوم للغداء لدى احدنا .

ومنذ ان وطأت اقدامهما بلدتنا ، بناءً على طلب المسؤولين

في العاصمة وتسنم طلعت رئاسة المنظمة فيها – تحولت المنظمة الى ثورة ، ففي كل ليلة اجتماع سري جديد نعقده في احد المنازل وفي كل جلسة كان الرفيق طلعت يلفظ خطاباً ويضرم فينا نار الحماسة ويوقد في اعماقنا جذوة الثورة على وضعنا الاجتماعي الفاسد !. وفي كل مناسبة تظاهرة جديدة !.. وفي كل اسبوع مواطنون كثر يتقدمون بطلبات الانتساب لمنظمتنا !..

فكان والحالة هذه ان رحنا نتبرع بالمال ليعيشا عيشة اقرب الى الرخاء ، لانهما كانا من الاندفاع بحيث لو تبرعنا بارواحنا في سبيلهما ، لما ضارع هذا التبرع التضحيات التي قدماها في سبيل هذه العقيدة !..

ومع الايام استأنس الرفيق طلعت وشقيقته الرفيقة سعاد بي ووجداني ضالتهما المنشودة ، فاصبحت صديقهما المفضل وخادمهما المطيع ، بحيث راحا يأتمناني أسرارهما فعرفت الكثير عن خفاياهما ...

... في احدى الليالي ، اثر اوبتنا من احد الاجتماعات ، انبريا يقصان علي قصة نضالهما في سبيل المنظمة ، ويشكوان ما لحقهما من غبن وسوء حال ، بسبب نضالهما ، رغم انهما لم يكونا كما هما عليه الآن ، فقد ورثا ثروة طائلة عن المرحوم والدهما ، واملاكاً كثيرة ، واراضي شاسعة ، بيد انه لكثرة زجهما في غياهب السجون عشرات المرات اضمحلت تلك الثروة رويداً رويداً وضاعت مع الايام تلك الاملاك ، ورغم كل ذلك ورغم العذاب الذي لقياه في شتى العهود التي مرت على البلاد لم يعرف التقاعس

اليهما سبيلاً ، وما زالا كما كانا ثورة انى حلا يبشران الجميع بمبادئهما ويناضلان نضالاً مستميتاً من اجل انتشارها .

ولا أذيع سراً اذا قلت انني بدوري كنت من الاعضاء الخلص في المنظمة وقد سُجنت من اجلها اكثر من مرة ، بيد انني تجاه قصة نضالهما وتضحياتهما الكبرى المستمرة الفيت انه لا يوجد ثمة مجال للمقارنة بين نضالي ونضالهما وتضحيتي وتضحيتهما .

ومع الايام ازدادت اواصر الصداقة والمحبة بيننا وبت لا استطيع مفارقتهما لحظة واحدة الا في المهمات التي يكلفني سميّي الرفيق طلعت القيام بها . .

فكل كلمة يتفوّه بها طلعت تقع مني موقع التقديس ، ولم اكن الوحيد الذي امسيت كذلك انما جميع الرفاق اصبحوا طوع بنانه ورهن امره ، يحرّكنا كيفما اراد ، فقد كان من قوة الشخصية وعذب الحديث وطلاوة اللسان بحيث رحنا نحاول جهدنا الاحتذاء به وبنضاله واندفاعه والنسج على منواله . . .

كانت شقيقته الرفيقة سعاد بدورها على جانب كبير من دماثة اخلاق شقيقها ورقيق اسلوبه . . كما كانت ذات جمال اخّاذ ، غير انها لم تكن لتشبه شقيقها في شيء ، فهو اسمر البشرة قصير القامة ذو عينين سوداوين ينبعث منهما بريق غريب ينفذ الى الاعماق ، في حين كانت سعاد بيضاء المحيا ، شقراء الشعر ، خضراء العينين ، ذات قدّ مياس سمهري ، وابتسامة ندية .

واثر خطاب ناريّ لفظه الرفيق طلعت ، اقترحت على بعض الرفاق بانه يتوجب علينا ان نقيم له تمثالاً في مدخل البلدة او في

احدى شوارعها الكبيرة او ساحاتها الفسيحة تقديراً له ولجهوده التي يبذلها في سبيل العقيدة، وبذا يكون اول تمثال يقام لرجل حي.

فقابل اقتراحي رضى الجميع ، ووقع من طلعت موقعاً حسناً وسُرّ منه ايما سرور، فقد كان بالحقيقة يستحق اكثر من تمثال لان بفضل جهوده تحولت المنظمة في بلدتنا الى كتلة من النشاط واصبحت تضم خيرة شباب البلدة .

وبتُّ مع الايام اهمل عملي الذي كان السبيل الوحيد لعيشي، اذ انصبّ كل اهتمامي على العمل الحزبي ، فطردت منه ولم اكن الوحيد الذي طرد انما كثير من الرفاق طردوا من اعمالهم، كما كدت ان اطرد من منزل ابويّ بعد ان اصبحت عالة عليهما ، لانني امسيت لا احسن اتيان عمل يدر مورداً ولو ضئيلاً بسبب انضوائي تحت لواء هذه العقيدة ، ولطالما سبب لي ذلك خصومة ، واستعر اوار الجدال بيننا وكثيراً مانشب بيني وبينهم نزاع محتدم ، ورغم كل ذلك استمريت سائراً في الدرب الذي رسمته لنفسي ووجدته (المنقذ الوحيد) لشعبي دون ان اعير لتوبيخ اهلي ونصحهم اياي بعدم سلوك هذا الدرب اذناً صاغية ، بل انطلقت اكثر في العمل لابرهن لمسؤول طلعت بأنني عضو فعال منتج يحاول جهده نشر المبادىء بين المواطنين وادخال اعضاء جدد في المنظمة ...

كان سميّي الرفيق طلعت وشقيقته الرفيقة سعاد بدورهما لا يأتيان عملاً، وانما شأنهما شأني، وشأن الكثيرين من الرفاق الذين صبوا همهم على العمل الحزبي، بفارق بسيط : هو انهما كانا يقتاتان

من اتعابنا في حين كنا نقتات من اتعاب ذوينا!..

ومع الايام اصبحنا موضع تذمر ذوينا ، واجتاز التذمر منا ومن منظمتنا الى بقية الاهلين من ذوي العقول (الرجعية) الذين لا يقـدرون (التضحية) في سبيـــل (مثل عليا) .

* * *

وذات يوم سافرت الرفيقـة سعـاد الى احدى البلدان القريبة لتقوم بالدعـاوة الحزبيـة ، في حين قرّ رأي الرفيق طلعت على الخروج بتظاهرة نعبر فيها عن استنكارنا لبعض المشاريع الاستعمارية التي تلوح لنا بها الدول الغربية ...

وفعلاً كانت تظاهرة لم تشهد لها بلدتنا من قبل مثيلاً ، وكان للخطاب الذي لفظه الرفيق طلعت صداه الكبير بين المتظـاهرين فالتهبت له الاكف تصفيقاً ، وفيما هو يرتجل خطابه الناري داهمتنا مفرزة من رجال الشرطة فولينا الادبار هاربين...

بيد انهم القوا القبض على اغلبنا ليقودونا الى النظارة حيث قضينا فيها عدة ايام خرجنا بعدها (كابطال فاتحين) ، شامخي الهامة مرتفعي الرؤوس ننظر بازدراء للمواطنين الذين لا يحذون حذونا بل يجبنون عن السير في دربنا !..

* * *

وفي احدى الامسيات واثر التظاهرة باسبوع كنت جالساً في حانوت احد المواطنين (الاشراف) اشرح له اهداف حزبنـا وغاياته الرامية (لخلق مجتمع جديد) بعيد عن مآرب الاستعمار الغربي ، دون ان يكون لدولة اجنبية يد علينـــا ، واذا بموزع

البريد يخبرني بأن لي في حوزته رسالة مسجلة فاستلمتها بعد ان وقعت على دفتره ووضعتها في جيبي ، وعدت لاتمم حديثي مع المواطن ، وطال بنا الجدل ، وتشعب الحديث ...

وفي تلك الليلة عدت الى المنزل في ساعة متأخرة من الليل وقد استولى عليّ الكرى .. وفيما انا اطفىء النور وادس بنفسي في الفراش واستعرض حوادث يومي ، تذكرت الرسالة ، فاستويت في فراشي واشعلت النور واخذت الرسالة وفتحتها ورحت اتلوها .

يالله !.. فقد احسست كأن تياراً كهربائياً قد سرى في جسمي ، ولم تصدق عيناي ما قرأته ، فاعدت تلاوتها من جديد ، وجن جنوني وشعرت بالارض تمور تحت اقدامي وقد اجتاحتني موجة من الثورة والغضب لا حد لهما وانا مصعوق من امري لا اكاد افقه لما اقرأه من معنى !... وغاب عني الوجود من هول المفاجأة ، وعدت الى المغلف ، اواه ... لقد ارتكب موزع البريد خطأ كبيراً !..

ان الرسالة ليست لي !.. انما لسميّي (طلعت منيف) وليست بـأسمي (طلعت منير) وقد تضاعفت دهشتي اذ وجدت في الرسالة حوالة مالية !.. اجل حوالة !.. واذ بالدموع تنهمر من مقلتي كالسيل دون انقطاع وانا احس بآمالي واحلامي العذاب في منظمتي دفعة واحدة تتحطم ،ورحت اتلوها بصوت عال صدر عني كالعويل :

حضرة الرفيق طلعت منيف المحترم

تحية وبعد، نرجو ان تكون والرفيقة سعاد بتمام الصحة، كما نأمل ان تكون الحركة في منطقتك قد انتقلت من حسن الى احسن ،

وجل املنا ان تبقى قصتك منطلية على الجميع بانك فقير معدم لا تملك شروى نقير، وان اخبارك لم تتسرب اليهم بعد بانك ملاك كبير، او انك تقبض منا راتباً كبقية المسؤولين في المناطق .

فان افتضح امرك فبادر فوراً باخبارنا حتى يصار تحويلك الى منطقة اخرى نائية .

طيه شيكاً بمبلغ (٢٠٠) دينار، منها ستون راتبك الشهري، واربعون راتب الرفيقة سعاد ، اما المبلغ الباقي فهو قيمة التظاهرة التي هيأتها وكانت حسب تقريرك جد ناجحة .

هذا وقد بعثنا برسالتك الى (**الجهات العليا المختصة**) وذيلناها بتوصية ، ونرجو ان نحصل على نتيجة حسنة في القريب العاجل فيزداد راتبك .

(**الجهات العليا المختصة**) تشكو قلة تقاريرك، فنأمل الاكثار منها.

ختاماً تفضل والرفيقة سعاد بقبول وافر التحيات

سكرتير الحزب

وكانت الرسالة مذيلة بتوقيعه وختم الحزب **!!!**

بالحقيقة لست ادري كم مرة تلوت الرسالة وانا اكاد اتميز غيظاً ووددت لو كان النذل طلعت امامي لاحطم رأسه بقبضتي ولأمزقه باسناني ارباً ارباً ، يا للمجرم ، انه يتاجر بنا وبزيادة عددنا وبتظاهراتنا **للجهات العليا المختصة!. للاجنبي!. للاستعمار!.**

يا لنا من جهلة مغفلين فقد ظنناه رجلاً مثالياً يعمل لصالح وطنه ورفع مستوى العامل الحياتي ، فاذا به جاسوساً حقيراً !..

اهذا الذي اقترحت ان ننصب له تمثالاً عند مدخل بلدتنا اعترافاً (بخدماته الانسانية) (وتضحياته المستمرة) !?. فاذا هو عميل قذر للاستعمار الاحمر واذا نحن طلاب في مدرسة الخيانة والعوبة بين يدي الاستعمار يحركنا وفقا لرغباته ومآربه !..

لم ادر ماذا اصنع ، والافكار تتصارع وتتزاحم في رأسي وتصخب ، وبقيت اذرع غرفتي جيئة وذهوباً حتى قر رأيي اخيراً على فكرة : لماذا لا اذهب اليه في هذه الليلة ذاتها واناقشه الحساب ، ولن اخرج الا بعد ان اهشم رأسه ?.. وبسرعة احكمت اغلاق المغلف بعد ان ضمنته الرسالة والشيك ورحت ارتدي ثيابي ..

سأهبه الرسالة ليتلوها وانظر الى تقاطيع وجهه ، وسأسأله حقيقة الامر ، وسأصبّ عليه جام غضبي ، وسأكون منذ هذه الليلة حرباً شعواء ضد هذه المنظمة الاستعمارية الخارجة عن ارادة امتنا العرَبية !..

نظرت الى ساعتي بعد ان انهيت كل شيء فالفيتها تشير الى الواحدة بعد منتصف الليل ، ورغم ذلك خرجت من غرفتي كالسهم ميمماً شطر منزله ...

وما ان قاربت مشارفه حتى تباطأت في سيري حتى حاذيته ، ووقفت في مكاني احدق به .

لقد كان ينبعث منه نور احمر خافت ، وبخطوات حذرة اقتربت اكثر من المنزل فتناهى الى سمعي صوت خافت ، فرحت ارهف السمع فقد كان صوت انّات وآهات عميقة ، وهمسات

ومصمصة شفاه تنبعث من الداخل !!

يالنذل... لقد اغتنم فرصة غياب شقيقته سعاد ليختلي باحدى عشيقاته !..

وثارت ثائرتي ، وانفجر مرجل غضبي ، وبقوة جبـــارة ركلت الباب بقدمي فتحطم مزلاجه وانفتح على مصراعيه وقفزت الى الداخل ، واذ بي اقف في مكاني كتمثال قدّ من حجر لا انبس ببنت شفة ، احدق جامداً الى الجهة التي ينبعث منهـــا الصوت وانا احس ان الدماء قد تجمدت في عروقي ...

فيا لهول ما رأيت !!.

سعاد في احضان طلعت !!!

. . . .

. . . .

. . . .

ولم ادر ماذا صنعت ، وكم من الوقت مر عليّ وانا فيما انـا عليه من الذهول ...

* * *

وزاد محدثي قائلا بعد برهة صمت ران على ارجاء المكان :

في تلك الليلة استيقظ اهالي البلدة الساحليـــة الصغيرة على صراخ كأنه دوي الرعد ، فترك الاهلون فرشهم وخرجوا الى الشارع بمناماتهم يستطلعون جلية الامر ، وتوجهت انظارهم الى

مصــــدر الصوت فقـد كان ينبعث من منزل طلعت منيف ، وتحمس الكثيرون من افراد المنظمة ، وذهب بهم الظن الى ان هنـاك من يحـاول الاعتـداء على منزل رئيسهم فانطلق الجميع يركضون مع الاهلين شطره ..

ولما ادركوه استغربوا عندمـا الفوا طلعت منير وقـد انتصب في باب المنزل وهو لا زال يصيح باعلى صوته وبيده رسالة وشيك يلوّح بهما ، ويشير باليد الثانية الى الداخل ، فدخل القوم الى المنزل غير انهم تسمروا في امكنتهم ، وقفَ شعر رؤوسهم ، حين اصطدم بصرهم بمنظر تقشعر له الابدان ... فارتدوا الى الخارج مصعوقين .

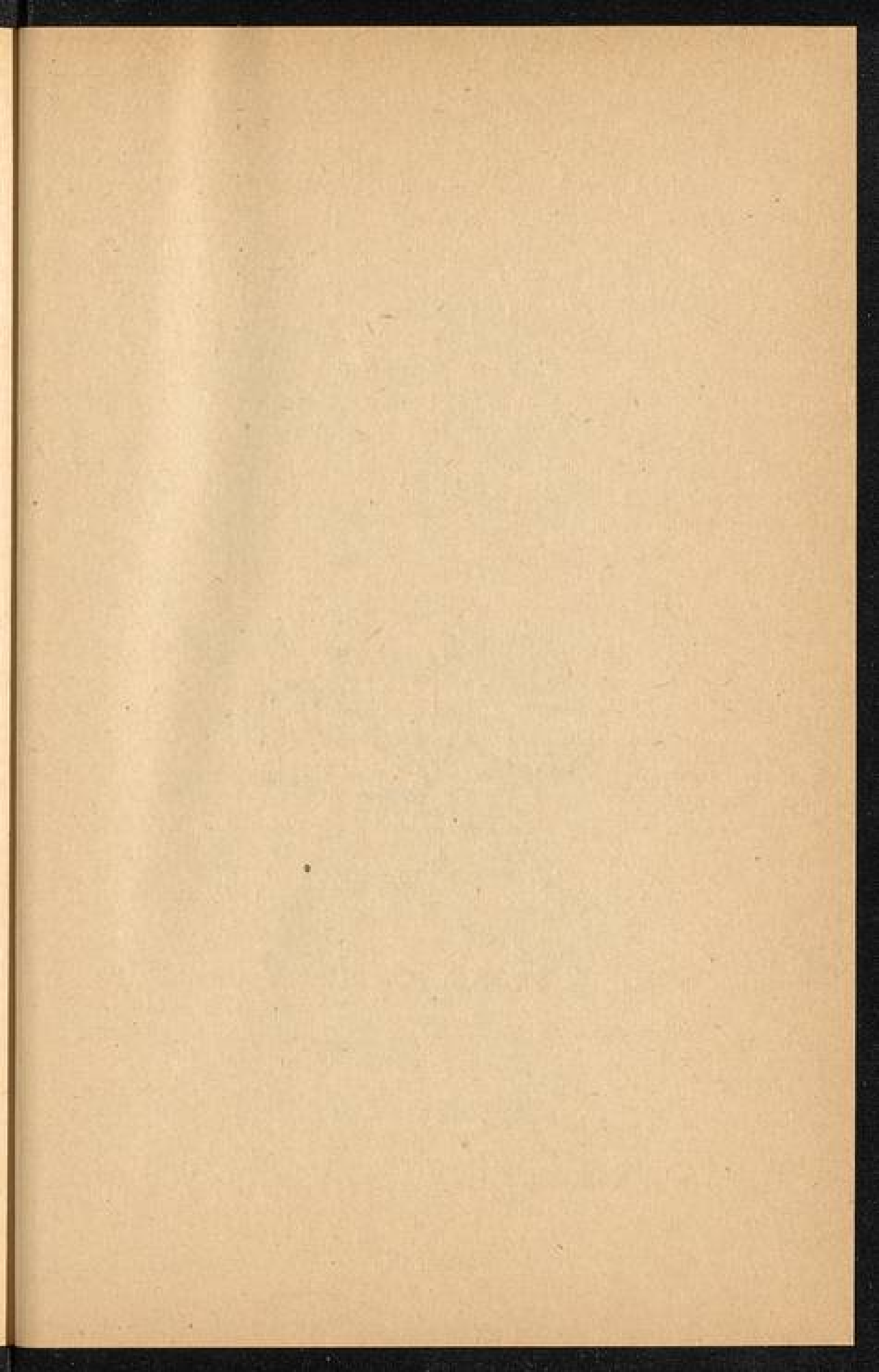
وفي تلك الليلة ذاتها طرد (طلعت منيف) وسعاد من البلدة شر طردة بعد ان نالا من الشعب الغاضب الثائر جزاءهما.

شيء واحد ادركه طلعت منير في تلك الليلة ان سعاد لم تكن شقيقة طلعت منيف انما كانت عشيقته !!!

عادت الامور في بلدتنا بعد تلك الليـلة الى مجراهـــا الطبيعي ، وسابق هدوئهـــا المعهـــود ، فلا تظاهرات ولا شغب ولا قلاقل ، كلٌ منهمك بمشاغله ، يعمل عملاً منتجاً ، حتى طلعت منير ذاته استطاع الحصول على عمله السابق !..

وكانت هذه الحكاية تروى لكل من يقصد البـلدة ، ويتندر بها السكان في السهرات وليالي السمر واصبح ذلك آخر العهد بتلك المنظمة الاستعمارية وبزبانيتها الذين تبعثهم ليكونوا اداة تهديم بين افرادا المجتمع !..

أعظم أب



لا ، لست ادري كيف حدث كل ذلك ! ... لا اعلم كيف اقدمت عليه !.. فقد كنت في حالة غير طبيعية !.. لقد رأيت ان اشياء كثيرة تكاد ان تتهدم : استقلالنا الوطني... سيادة امتنا... مقدراتنا القومية.. والقيم الراسخة في كيان شعبنا..

لذا قتلته !..

اجل قتلته !.. وحسبي اني انقذت المجتمع والبلاد من عضو هدّام لا يعرف مصلحة بلاده ، انما هو والآلاف من امثاله من ابناء شعبنا العربي امسوا العوبة طيّعة في يد الاستعمار يلهو بهم كما يحلو له ويحركهم متى شاء طبقاً لمآربه وغاياته !..

لا تسليني كيف حدث ذلك !.. اتبكين؟!. اجل انني لادرك فداحة المصاب ... ورغم ذلك فهو لا يستحق قطرة دموع طاهرة من مآقيك ...

* * *

كان (عبد الرؤوف) يشعر في قرارة نفسه ان السماء ناقمة

عليه ، وان القدر الالهي غير راضٍ عنه... فهو ذاته حاول مراراً ان يفقه كنه تلك الاقدار التي كانت منذ زواجه الباكر تتسلط على حياته فتسيرها كيفما شاءت ، بحيث استحالت الى جحيم مستعر الاوار ... وسدى حاول ان يفسر اسرار هذه النكبات التي توالت على ايامه ... فكلما انجبت له زوجه (بدرية) مولوداً جديداً تنقض يد المنون فتنتشله من قماطه قبل ان تتعود قدماه الطريتان على السير ، وقبل ان يلثغ لسانه بكلمة حنون على مسمعه ، طالما اشتهى ان يسمعها ولو مرة واحدة من فلذة كبده: بابا ... بابا ...

ولم يجد عبد الرؤوف المنكود الحظ سبباً لهذه النكبات المتوالية ، فهو لا يذكر انه ظلم مخلوقاً ، او أكل ديناً على أحد، او اخل بفرائض الكتاب الكريم الذي كان يقرأ من سوره قبل بزوغ الفجر ، وعند دلوج المساء ، آياتٍ بينات كان يحسها على شفتيه تنداح كأنها قطرات صافية من المعين الالهي الذي لاينضب .

لقد اقترن ببدرية وله من العمر ثمانية عشر حولاً ، في حين كانت هي في ربيعها الخامس عشر ريّانة فاتنة ممشوقة القوام مفترّة الثغر ابداً عن ابتسامة نديّة .

وتنقضي عواسل الشهور ، وتضع له زوجه وليدها البكر ، بيد ان ما يكاد يصيب الوليد من العمر اشهر ستة ، حتى تختطفه يد المنون !..

وتمر السنون ، واصبح لعبد الرؤوف نيفاً وثلاثين حولاً ، وقد اودع الثرى خمسة من فلذات كبده وهم في مهدهم قبل ان

ينضج النور في أعينهم .

ورغم ذلك فقد كان دائماً راضي النفس ، يحمد الله على كل ما ينال مؤمناً انه صادر عن ارادته السامية .

وما برحت نظرته الى بدريه كما كانت عليه منذ ان عقد له عليها ، نظرة حب وتوجع لانها لم تكن تنعم هي ايضاً بطفل ينتزعها من وحشتها الدائمة ، وحياتها الرتيبة الحزينة .

كانت هذه الافكار ، وهذه الصور السريعة تراوده وتعيد الى بصيرته تلك الحقبة من حياته الزوجية فتعكس امام عينيه حوادثاً وأحداثاً يمر بها كأنها شريط سينمائي تغمره الدكنة القاتمة !..

« وارتفع في تلك الاثناء صوت المؤذن يدعو المؤمنين الى صلاة الفجر ، فراح عبد الرؤوف يبسمل ويحمدل » وهو يتوضأ ، ثم يركع امام الله مصلياً مستغفراً تائباً منيباً ، وشعور خفي يداخله ان السماء ستستجيب الى صلواته الحارة وتفرجه من كربته ...

وكأن السماء التي لا تضنّ بالطلب على احد قد استجابت لدعائه وصلواته الحارة الطويلة فحملت زوجه جنيناً سادساً ...

ومع الفجر كان عبد الرؤوف ينهض باكراً ويصلي بخشوع وتقوى طالباً من الله ان يجعل هذا الجنين الذي يستقر في احشاء زوجه طفلاً ، ويبقيه ذخراً ، فلا يفجعه به شأن اخوته الخمسة . ونذر على نفسه ان يهب الفقراء وبيت الله كل ما جمعه من مال ، حصيلة سنوات مضنية من الخدمة في سلك الجيش .

وكانت زوجه قد استيقظت بدورها لتصلي الفجر فبادرته بتحية الصباح ، فما كان منه الا ان القى بنظراته ، وبطريقة عفوية — على وسطها حيث يستقر امله الباسم ...

وتمر الايام ... وتعقبها الشهور ... وفي حفل من المرح والمرح وضعت زوجه وليدها السادس ... فاذا الدنيا من حوله عرس ..

ففتح صندوق ماله يغرف منه موزعاً على الفقراء والمعوزين، وعلى رجال الله الصالحين . واقبلت القابلة ، ووضعت طفله بين يديه طالبة ان يقترح له اسماً ... ففكر طويلاً ... واخيراً استقر رأيه على ان يسمى ابنه غازياً .

وكان مجيء غازي فاتحة خير عليه فاذا به ينال رتبة ملازم في الجيش ...

* * *

نشأ غازي وترعرع في كنف والديه الحنونين اللذين اسبغا عليه من الحب والعطف الواناً . وها هو يكبر ، ويصبح صبياً يلعب مع اترابه في الزقاق في حي الكرخ ، او يهرع برفقتهم — خفية — الى نهر دجلة ، يسبحون في الماء ، ويتبردون من حر الهجير .

شب غازي في بيئة كل من فيها يحيطه بضروب العز والدلال، فكل ما يشتهي طوع امره ، وكل ما يتمنى يدركه ، فلا يرد له امر ، ولا يخيب له سؤال .

ويرسله والده الى المدرسة ، موصياً المعلمين ان يحيقوه بشتى وجوه العناية والرعاية ...

ولم يشرف غازي على الثامنة عشر من عمره حتى اخذ والده يتنبه ان تغيرات كثيرة طرأت على نفس وتصرفات واخلاق ولده ، فطفقت خطاه تتدرج في سبل غير تلك التي نشأ عليها والده عبدالرؤوف الذي كان يزداد قدره في نظر رؤسائه، مثنين على سلوكه الوطني ، ونشاطه المستمر ، وسهره الدائم على مصالح امته ،فينال الرتبة اثر الرتبة ...فاذا به مقدماً في الجيش يزدهي بأبهى حلة ..

بينما راح غازي يجاري بعض اترابه في مسالكهم الوعرة اللامرضية ، فلا يقوم بفروضه الدينية ، ولا يصغي لنصح والديه، بل انخرط مع رفاقه الطلاب مشاركاً ايام التظاهرات التي كانوا يقومون بها ، تدفعهم اليها ايدٍ مجهولة غريبة عن امتهم لمآرب وغايات استعمارية بحتة !..

وذات يوم رآه والده في تظاهرة فاحس بآماله الكبار تتحطم دفعة واحدة بولده ، وفي ذلك المساء عند ما عاد وحيده غازي الى المنزل نشب بينهما جدال طويل ، وادرك الوالد عبد الرؤوف لاول مرة مقدار ما جناه على وحيده بتلك التربية والدلال ، بحيث لم يعد بمقدوره الآن ان يعيده الى الطريق القويم . اذ ذهبت كل محاولة بردعه عن غيه ادراج الرياح ، فمازال ابنه

يسلك الدروب التي اختارها لنفسه .

وكانت صدمة صعقته عند ما ناداه رئيسه في الجيش سائلا اياه عما اذا كان هذا الطالب يخصه !..

وابرز لائحة كبيرة كتب في سطورها الاولية اسم : « غازي عبد الرؤوف » !..

فأومأ برأسه ان نعم ، وزاد بأنه وحيده !.. فتبدلت نظرات الرئيس ، وتمتم وهو يقول :

انه من اكبر عناصر الشغب في مدرسته ، وهو من كبار محرضي الطلاب للقيام بتظاهرات !!.

وفي ذلك المساء شاهد المنزل معركة كلامية حامية الوطيس ، احس خلالها عبد الرؤوف ان زمام السيطرة على وحيده لم يعد طوع يديه ، بل طوع ارادة اجنبية تأمر فيطيع !.

* * *

وفي التظاهرات الكبيرة كان غازي يسير في المقدمة هاتفاً مطالباً (بحريات الامم) معيشاً الاتحاد السوفياتي (نصير الشعوب (المظلومة) .

واثر احدى التظاهرات ، وبعد ان لاذ المتظاهرون بالفرار دعاه رئيسه كرة اخرى وانبرى يعنفه طالباً اليه ان يحد من نشاط ولده واندفاعه الهدام لحساب الاجنبي الطامع في استعمار البلاد واستثمار مرافقها الحيوية ...

ومرة اخرى كان نصيب عبد الرؤوف الخيبة والخسران ، فلم يجد بداً من طرد وحيده من المنزل الابوي، كما كان قد طرد قبلا من الكلية وبدأت الحكومة ملاحقته ...

كان غازي في بعض المرات يتسلل خلسة الى المنزل ، عند ما يكون والده غائباً عنه ... وكانت والدته تبكي وهي تنصحه ان يعود عن غيّه وضـــلاله .. بيد ان دموعها لم تكن لتجدي نفعاً ... فما زال غازي يندفع في دروبه الضالة المضللة فيثير الشغب اينما حل ، واصبح من العناصر الهدامة في البلاد !..
وكلما ذكر اسم غازي واعمـاله المخزية على مسمع والده طأطأ رأسه خجلاً وحياءً ، وهو يشعر انه اضحى وصمة عار في جبينه .

وتقوم ذات يوم تظاهرة كبيرة في حي الكرخ ، فتمر على الجسر العتيق ، ثم تنتهي الى شارع الرشيد تنادي بالسلم محيية الاتحاد السوفياتي واسياد الكرملين ، ويخرج المقدم عبد الرؤوف على رأس كتيبة من الجيش ليقمع التظاهرة وقد جاءته الاوامر بأن يقمعها بأية صورة كانت ، حتى ولو بالنار والحديد .

وكان غازي كعادته على رأس المتظاهرين . ويقف المقدم عبد الرؤوف موقفاً حرجاً ، اذ ينشب صراع عنيف في اعماقه، صراع بين حبه لولده، وواجبه تجاه بلاده، فاذا بحبه لوحيده، رغم نقمته عليه ينتصر في اعماقه ، فيتخاذل ويجبن عن مسّه بسوء !..

لم تفلح قوى الجيش في قمع التظاهرة ، ما دام على رأسها

غازي الذي كان يبذل قواه للاندفاع بها بلا تلكؤ او خور ، فتتمكن التظاهرة من قطع شارع الرشيد الى شارع الامين !..

* * *

وقف المقدم عبد الرؤوف مطأطيء الرأس يسمع تأنيب رئيسه ، فقد تقاعس عن تأدية واجبه تجاه بلاده ، غير انه لم يجد بدأً من ان يقسم بشرفه العسكري بتسليم ولده غازي حياً او ميتاً !.

ولكن اين له ان يبر بقسمه، وغازي متوارٍ عن الانظار؟..

بيد ان اخبار ولده العاق كانت تتسرب اليه فيسمع انه عقد اجتماعاً في حي الكرخ ، او القى خطاباً في حي الرصافة ...

وكان ان استقر رأي الوالد على امر خطير غسلاً للعار الذى الحقه ابنه بأسرته وسمعته .

وكانت تظاهرة كبرى !.. ويتقدم المقدم عبد الرؤوف يطلب الى رؤسائه ان يطلقوا يده في قمعها بعنف فكان له ما اراد..

وكان غازي على رأس المتظاهرين في هذه المرة ايضاً !.

وها هو المقدم عبد الرؤوف وجهاً لوجه حيال وحيده غازي !..

* * *

لا ... لاتسليني كيف حدث ذلك !.. لانني لا استطيع ان اجيبك !.. لااستطيع ان اقص عليك التفاصيل !.. فقد كنت في حالة لا يمكنني وصفها !..

كنت بين نارين !. نار الواجب المقدس، ونار الحب الجامح !.
ونشب في اعماقي صراع ، صراع عنيف بين الحب والواجب ،
وكانوا مقبلين ، وثورة الصراع ما زالت محتدمة الاوار في اعماقي..
وكما هو شأنه وعادته كان يقودهم ، وهـا انذا وجهاً لوجـه
قبالته !.. وفي لحظات حدث كل شيء !..

فسقط على الارض جثة هامدة يتخبط بدمائه !.. ولاذ
رفاقه بالهرب مطلقين سيقانهم للريح !..

جبناء ... رعاديد ... لقد روعهم مشهد الدم يتفجر
من جسده ... جسد وحيدي الذي به كانوا يحتمون !.. وعندما
سقط قفلوا هاربين ... لا يلوون على شيء .

لا ، لا ، لم اكن ارغب ان يحدث كل ذلك ، فلطالما نهيته
عن سلوك ذلك الطريق الوعر ..

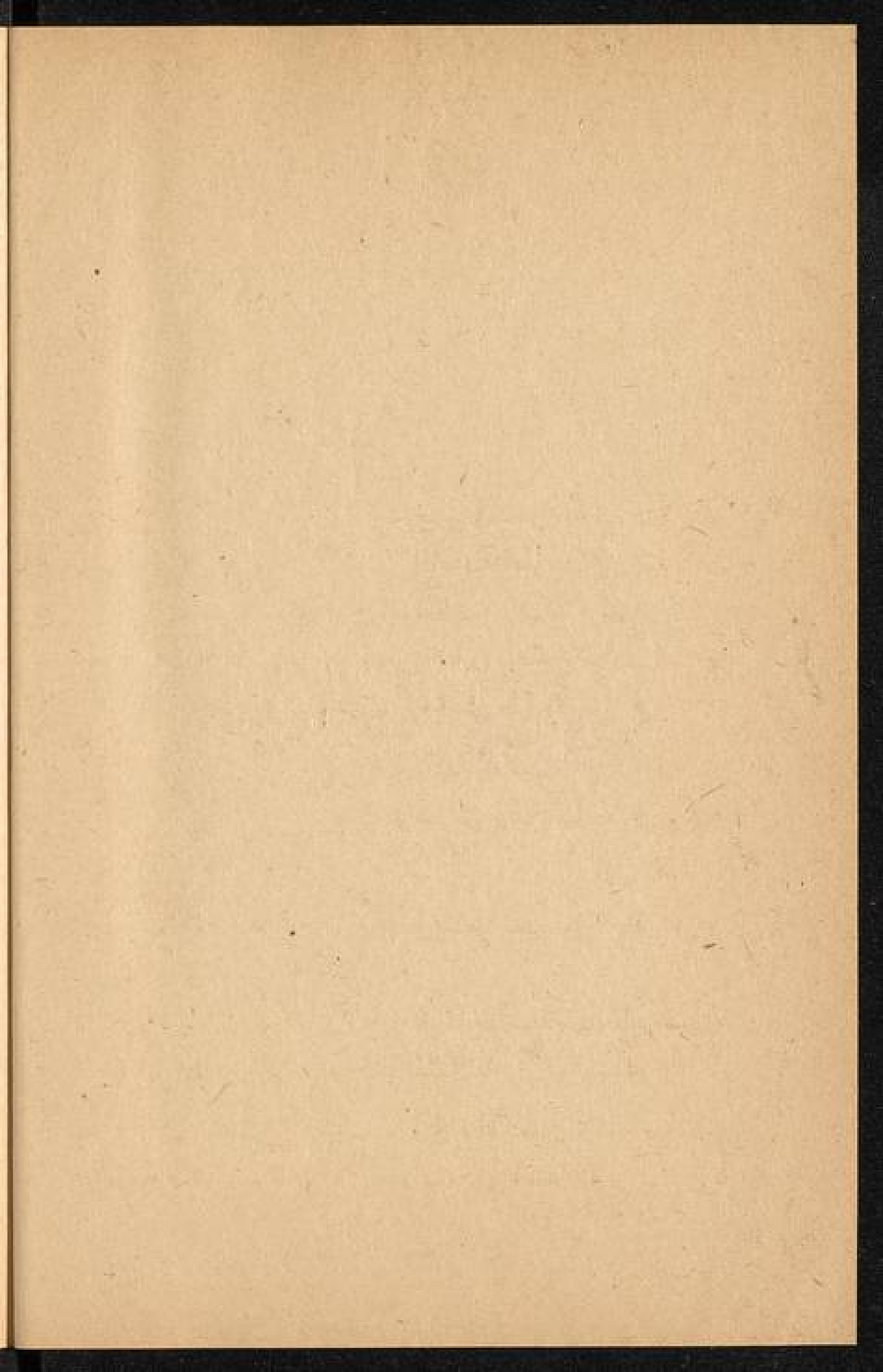
كفى ، كفى بكاء . . فأنت نفسك يا بدرية كنت ناقمة
عليه في الآونة الاخيرة ، ولطالما شكوت لي تصرفه الشاذ ...
انك تقطعين نياط قلبي بنشيجك ونحيبك ... كفاك بحق السماء
بكاء ... فان اعصابي لم تعد تتحمل ...

لقد خطوت فوق جسده المضرج بالدماء لاقمع التظاهرة ،
وفعلاً تمكنت .

وعند ماعدت الى القيادة امتثلت بين يدي
رئيسي الذي كان قد بلغه اخباري ، فاذا به لاول مرة منذ

عامين اثنين يهش في وجهي مبتسماً ويربت على كتفي وهو يقول :
اني لادرك مقدار تضحيتك في سبيل واجبك ... فالامة
التي فيها رجال من امثالك لن يكون قبرها التاريخ ...

المواطِن الجديد



كان يروق لي كثيراً ان اجلس في متجر صديقي فريد ناصر استمع اليه تارة وهو يقص عليّ اقاصيصه الطريفة التي تختلط فيها العبرة بالسخرية ، والدموع بالضحكات ، وتارة اخرى اراقبــــه وهو يساوم زبائنه على قطعة من القماش بلباقة ، فكانت الساعات تمر عليّ وانا في جلستي تلك دون ان احس كيف انقضى الوقت...

كانت زياراتي لمتجره تأتي كلما احسست انقباضاً في نفسي او شوقاً للاستماع اليه ، فهو محدّث لبق يرغم مستمعه على الاصغاء اليه بكليته ..

وفي ذات زيارة ، انبرى فريــــد يقص عليّ بعض نوادره وقد خلا المتجر من الزبائن !..

بيد ان صمتاً مباغتاً ران فجأة علينا حين اصطدمت انظاره بشخص يعبر الشـارع ، فلفت صمته المبـاغت انتباهي الى الشخص ذاك .

... كان فتى رثّ الثياب زري الهيأة تنطق تعابير وجهه بالمآسي العاصفة والفواجع العاتية التي اجتاحته . في العقد الثالث من عمره ،

بيد ان من يبصره لاول وهلة يخاله في خريف حياته ، واذا بفريد يشير اليـــه وهو يقول : هل تعرف هـذا الشخص ؟..

فهززت رأسي نفياً .

فاردف يقول : انه صديق الطفولة (كامل يونس) مسكين لقد هدم نفسه !..

فقاطعته قائلا : علَّ له قصة طريفة في جعبتك ستر ويها الي الآن ؟

أجـابني ضاحكـاً : يا لك من ساحر عظيم وكاشف للغيب فهذا كبد ما اريد الاتيان عليه .

صمت برهة ، فخيم السكون علينـا وراح فريد يسترجع اشتات ذهنه الضائع المتلبد ، وينبش ذكرياته المبعثرة ، ثم استوى في جلسته وهو يقول : انها لقصة طريفة ومؤثرة هذه التي سأرويها لك الآن ...

وعاد الى صمته وما هي الا هنيهة حتى تمم يقول : لا اذيع بياناً يا صاحبي او افشي سراً خطيراً حين اقول ان كامل يونس كان اذكى مني بمراحل في جل اطوار حياتـه الدراسية ، فهـو صورة مجسمة للذكاء ، ومثال يحتذى في النشاط . وكان ابداً ودائماً يفوز بالدرجة الاولى بين جميع اقرانـه الطلاب ..

وقد افترقنـا بعدئذ ، انا تركت المدرسة بعد حصولي على الشهادة الابتدائية وانخرطت في صميم معركة الحياة بعد ان فقدت اسرتي الصغيرة معيلها بموت والدي !..

اما هو فقد استمر يعب من منهل العـلم لينتقل من ثانوية الى كلية الى الجامعة لينتهي به المطـاف الى السوربون بباريس . وقد كان دائماً في جل اطوار حياته الدراسية يفوز بقصب

السبق على الجميع !..

ورغم ذلك ، ورغم الشهادات التي حصل عليها ، فها نحن ، على طرفي نقيض ، هو يجوب الشوارع بلا عمل ولا امل ، في حين انا حامل الشهادة الابتدائية ، اصبحت املك متجراً ولي مكانتي وكلمتي في سوق التجارة والمجتمع ، ولا يداخلنك بأنني حصلت على ثروتي هذه عن طريق غير مشروعة ؟.. كلا .. انما هي جهود وثمار نتاج سنوات مضنية عصيبة قضيتها في العمل المتواصل والكد والجهد ، وستسألني الفرق بيني وبينه فاقول :

انني رجل عملي اؤمن بأنه بقدر ما اعمل وانتج سأربح ، وهو رجل خيالي يعلل النفس وينتظر حدوث معجزة تؤمن له الحياة التي يريدها ليثري بين ليلة وضحاها ، وهذه المعجزة التي يحلم بها هو وامثاله العجزة من ابناء شعبنا العربي البائس سيحققها - حسب زعمه - نظام مستورد من الخارج وغريب عن بلادنا فيطبق هذا النظام على مجتمعنا ليتساوى فقيرنا وغنينا ، ضعيفنا وقوينا ، عبقرينا وغبينا ! ..

حقاً ان به وبأمثاله مساً من الخبل ، فهم يهدفون الى توزيع القلة بالتساوي بين افراد المجتمع ، ولست ادري متى سيدرك هؤلاء الجهلة بأن الحياة ليست الا صراعاً وجهاداً ، صراع دائم يأبى والهدوء والاستكانة في سبيل طلب مجتمع افضل وحياة مثلى .

وكما تعلم يا صديقي بأنني نزلت الى ميدان العمل دون ان أرث عن والدي شيئاً الا فقره ، نزلت الى معترك الحياة وكلي ايمان بأن

من جدّ وجد ومن سار على الدرب حتماً سيصل ، وانه لا بد من ان يكون لي ذات يوم شأن في المجتمع ومكان تحت الشمس ، وهذا الشأن ، وهذه المكانة ، لن يأتيا بصورة عفوية ، او قضاء وقدراً ، او بالعمل لتطبيق فكرة غريبة بعيدة عن حقيقة امتنا العربية وواقعها ، انما كل ذلك سيتحقق عن طريق الصراع والجهاد .

كنت آنذاك في ربيعي الخامس عشر وكنت لا املك الا النزر اليسير وهو ثمن مصاغ والدتي ، فحملت البضائع ورحت اطوف بها في الاحياء بائعاً متجولاً ساعياً وراء الرغيف الذي كنت احصل عليه بشق النفس مجبولاً بالعرق والالم والجهد ، وكثيراً ما كان الفشل يخرج لي من وراء كل منعطف وشارع ، بيد انني لم انهزم بل رحت اصارعه ، وقد درجت على عادة الا القي نظرة الى الوراء لاحصي عدد الزلات التي فشلت بها وخسرت ، بل كنت امضي قدماً وقد زودتني تجاربي بمعارف وحكم جديدة...

لقد جعت واسرني كثيراً ، ولكم بتنا على الطوى ، ورغم ذلك لم يعرف اليأس الى قلبي سبيلا .. بل انطلقت لصراع اقوى وكفاح امر ...

واخيراً ادركني النجاح ، او قل انا ادركته ... ان النجاح اغتنام للفرص ، واذا بي القي بين يديّ ثروة صغيرة رحت اضاعفها بالعمل المستمر حتى تمكنت من استئجار متجر صغير .

وفيما كنت انا اعمل في حانوتي الصغير من الفجر حتى دلوج المساء بهمة ونشاط لا يحدان ، كان كامل قد انتهى به المطاف الى جامعة

السربون بباريس حيث راح يتخصص بالاقتصاد التجاري ، وفي اثناء دراسته بالسربون و كثرة اختلاطه بالطلاب الاجانب ذوي المشارب والميول والاهداف والعقائد المختلفة ، تشرب عقيدة من شأنها لو انتشرت ان تقضي على المثالية في كل انسان ، فلقد كان ذلك مبدأ هداماً يهدم في كل من يعتنقه المعنويات الروحية ، والقيم الاخلاقية ، وحب الصراع ، ويتركه عضواً اشل في المجتمع لا يحسن اتيان عمل منتج يفيد البلاد ويرفع من شأن صاحبه الاجتماعي ، انما يحوله الى اداة تهديم توغر الصدور بالحقد والضغينة والكراهية ضد الفئة الناجحة في المجتمع وتخلق فيه روحاً طبقية حقيرة .

وفي الوقت الذي كان فيه كامل يعب من منهل هذا المبدأ، كنت انا اقفز من نجاح الى نجاح، ومع الايام تزايد عدد زبائني واقبل الجمهور عليّ لصدق معاملتي ورخص اسعاري، فاضطررت للانتقال الى هذا المخزن الذي نحن فيه!..

واخيراً عاد كامل الى البلاد يحمل بيمناه دبلوم في التجارة والاقتصاد وبيسراه مبدأه الهدام .

كان كتلة من الحماس لا للوظيفة الحكوميـة المرموقة التي تسنمها ، انما للمبدأ الذي اعتنقه ، فقد راح يبشر به بين صحبه ، وكانت اول عقبة كأداء صادفهـا حين استعر اوار الجدال بينه وبين والده !..

فكامل ينكر وجود الله متبعاً بذلك نظرة مبادئه المادية التي تقول : الدين افيون الشعوب . ووالده الرجل التقي الورع

راح يقارعه الحجج بوجود الله بما لديه من آراء وحجج دينية ...

وعندما الفى ان ولده كامل ماضٍ في غيه وضلاله وان جهوده لم تفلح باعادته الى محجة العقل والصواب ويجعله كالماضي رجلاً تقياً ورعاً يؤمن بالله والانبياء ، طرده من المنزل طرد النواة وابى ان يكون بين افراد اسرته المؤمنة المتدينة فرداً زنديقاً كافراً لا ينفك يشتم الانبياء ملصقاً بهم شتى النعوت القذرة ويتمسك بنظرة مادية تسخر منهم .

واعقب طرده من المنزل الابوي اقالته من وظيفته لقيامه بحملات ودعاوات بين الموظفين لنشر فكرته ، ثم سعى له بعض الاصدقاء لدى تاجر وظلوا به يقنعونه حتى وظّفه لديه واولاه مهمة الاشراف على حسابات شركته ، فكان ان اراد كامل ان يحمل ذلك التاجر ذا العقل الراجح والهمة المتوثبة نفس افكاره!..

وكرةً اخرى كان الطرد نصيبه !.. فكان والحالة هذه ان راح كامل يقتات من الثمن الذي تدفعه القنصلية التي تروّج لهذه المبادىء كقيمة للتظاهرات التي يهيؤها ويخطب فيها ، ويسجن في الغالب من اجلها !..

ومنذ عام اخذ كامل يزور مخزني بامل ان يقنعني فانزلق الى دركه وحضيضه واصبح من اعضاء منظمته !.. بيد ان الفشل كان نصيب محاولاته ، وعندما وجد ان جهوده ذهبت ادراج الرياح نعتني بانني جاهل لا استطيع تفهم الفلسفة الماركسية (العميقة الغور) !! وانني متكالب على ذاتي اهوى جمع المال وبناء مركز مادي اجتماعي لنفسي مهملاً امر مجتمعي !..

فأجبته بهدوء وتروٍ : أوليس حرياً بك يا كامل وبكل فرد ان يعمل كما اعمل، فينشيء تجارة ناجحة ، او صناعة مزدهرة او ينتج غلالاً وفيرة ، من ان يضيع ايامه هباءً منثوراً ، اولا تعلم ان نجاح الامة وازدهارها من نجاح الفرد وتقدمه ؟..

وكان ان انقطع عن زياراتي ، لا بل اذا لقيني تجاهلني ..

وتمر الايام على كامل وهو لا يزال متردياً في حمأة افكاره الهدّامة ، وكانت حالته المادية والصحية والنفسية تتحول من سيء الى اسوأ حتى امسى كما ابصرته وكأنه شيخ في العقد السادس من عمره فقد حولته مبادئه الهدامة الى حطام ، وليته الوحيد الذي سلك هذا الطريق الوعر ليصبح بوقاً صادحاً لهذه المبادىء الاستعمارية؟!. كلا .. انما هناك الكثير من السذج والجهلة من ابناء شعبنا العربي الذين ضلوا سواء السبيل فانضموا تحت لواء هذه العقيدة الخارجة عن ارادة امتهم العربية ، وقد داخلهم انهم بذلك يعملون عملاً بطولياً وينهضون ببلادهم الى القمة ، ولا يدركون انهم ينحدرون بها الى الحضيض ... الى درك الهاوية، حيث الاستعمار الاحمر الذي لو اطبق بمخالبه على بلادنا لما استطاعت ان تجد للانعتاق من ربقة عبوديته سبيلاً ..

* * *

انقضى شهر على تلك الزيارة التي اسمعني فيها صديقي فريد قصة كامل يونس، فرغم الشوق اليه والى احاديثه لم استطع زيارته، فبعض اسباب تأخري عن زيارته كان عيد رأس السنة الجديدة وما تخلفه من مشاغل ، كتصفية حسابات العام الماضي ، بحيث

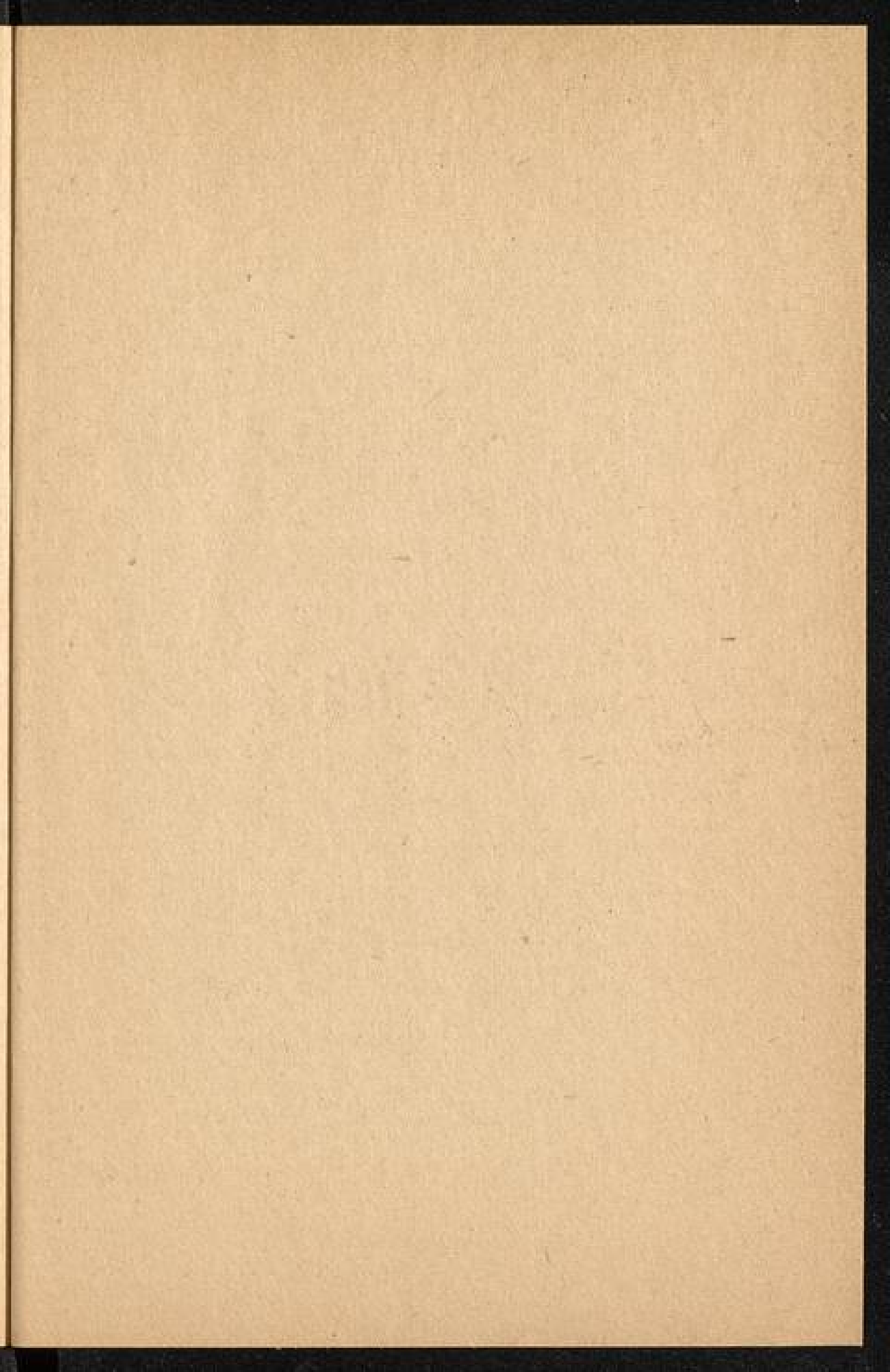
انهمكت باعمالي حتى اذني ، واذ بالهاتف يرن وكان المتحدث صديقي فريد ذاته ، وبعد ان اقرأني السلام انبرى يعتب على تأخري عن زيارته ، وانهى حديثه باصراره على وجوب حضوري الى مخزنه ، لانه قد هيأ لي مفاجأة سارة...

... حقاً لقد كانت مفاجأة طريفة ، فقد هالني ان اجد بين موظفي مخزنه عامل جديد هو غاية في النشاط ، كان يتحدث الى الزبائن برقة ولطافة ، ويساومهم ، ولا يتأخر عن بيعهم ،ثم يهرع لتسجيل الحسابات ويتركها ليرد على المخابرات الهاتفية ، ويبادر ليتصل هاتفياً بالمخازن يسألهم عن سعر البضائع الجديدة ثم يتصل ببعض التجار ليعقد صفقات تجارية ، وبقيت في حيرة من امري وانا احدق به فاغر الفم دون ان انبس ببنت شفة في حين كانت الابتسامة تعلو ملامح صديقي فريد الذي بادرني بالسؤال ان كنت اعرف الموظف الجديد !؟.

فهززت رأسي نفياً .

فاذا به يقول : انه كامل !.. اجل كامل يونس ذاته !.. لقد ادرك اخيراً ضلال طريقه ومساوئه فقفل راجعاً من منتصفه ليبدأ من جديد ، بعد ان طرح عنه تلك الافكار العقيمة ليصبح - لاول مرة - مواطناً جديداً بناء،فنزل الى معترك الحياه ليشق طريقه نحو مستقبل اسعد. وليت جميع رفاقه الضالين يحذون حذوه فيعودون من منتصف الطريق ليبدأوا من جديد ...

عَودَة الثّائِر...



لا يا اخي لا تعجب لهذا التبدل !.. لا تستغرب هـذا التغيير الذي طرأ على افكاري ... على عقيدتي ... اتدهش لانني تحولت الى بركان ثائر ، كلماتي من حمم ؟!. واحاديثي محشوة بمتفجرات !؟. اتذهل لانني اختلط بين اصادف مبشراً اني حملت بافكار جديدة افك بها العصائب عن الاعين المخدوعة الخانعة اللاواعية ؟!. وانير باحاديثي الطريق امام السذّج من ابناء مجتمعنا العربي محدثاً اياهم عن تجارب مرت بي ودفعت ثمنها غالياً جداً ، ورغم ذلك فمنهم من يصدقني ، ومنهم — وهم قلة مخدوعة بهرتهم هذه المبادىء ببريقها وخدرتهم بأفيون امانيها واحلامها — لا يصدقونني ، لا بل ينعتونني بالكذوب ظناً منهم ان هناك من يدفعني للمناداة بهذه الافكار الجديدة التي تفضح حقيقتهم المزيفة ، وتشجب مؤامراتهم الاستعمارية الدنيئة !..

وركن محدثي (آ كوب) الى الصمت ، فران السكون في ارجاء الغرفة كأن الطير على رأسينا ... وبقينا كذلك برهة

راح آكوب خلالها يحدجني بنظراته الثاقبة ليستطلع مدى تأثير وقع كلماته في نفسي .

كنت ارقبه في صمت ، واستمع اليه في خشوع ، فقد كان في نبرات صوته ما يدعو الى الاصغاء اليه في اجلال ، في حين ما انفك يدق حافة طاولتي بأنامله المعروقة ، دقاً رفيقاً تارة ، وتارة اخرى بعصبية تنبىء عما يعتلج في اعماقه من ثورة وحدة محتدمتي الاوار ...

واستطرد يقول : اراك يا صاحبي قد اتسم وجهك بسمات الاستغراب والدهشة ، اجل ، لقد اثرت بحديثي هذا فضولك وغريزة الاستطلاع فيك ، اذن فمن واجبي ان اكشف لك عن سبب ثورتي هذه المستعرة غير المنتظرة ...

وعاد آكوب الى لفافته يستل منها انفاساً متلاحقة ينفثها في جو مكتبي زفرات ترتاع منها اسم الافاعي وارهبها فحيحاً ، وتمتم يقول :

سمها ما شئت ، قصة ... او حكاية ... او حادثة ... او سيرة حياة انسان ... لك مطلق الحرية في النعت الذي يروقك أن تطلقه عليها ، ولكن الشيء الذي يجب الا يخفى عنك هو انها قصة حياتي ، ومأساة عشت كل حرف منها ، اسردها عليك كما حدثت دون تحوير او زيادة ونقصان :

كان ذلك لخمسة عشر عاماً خلت ، اذ كنت آنذاك في طيش

الشباب وكلي فتوة وحيوية حين كنت اعمل لقضية واحدة هي السبيل لتحرير بلادي (ارمينيا) من ربقة الاستعمار الاحمر ، كنت ثورة انى حللت ابشر ابناء امتي بافكاري ، وافتح اذهانهم الى قوميتهم الارمنية ليضعوا مصلحتها فوق كل شيء ... واذا بأسمي على كل شفة ولسان وإذا بي اصبح عضواً بارزاً في منظمتي يعتمد عليه في الملمات ...

وكان خير جزاء نلته ، واشهى ثمرة جنيتها هي اني اصبحت نائباً لرئيس جمعيتي !..

وهكذا سارت عجلة حياتي ...

وان انس فلا انسى ذلك اليوم الذي جاء فيه من يخبرني ان هناك من يود الاجتماع بي ، ولم اجد في ذلك غضاضة ...

عفوك يا اخي ... لقد سها عني ان افيدك ، فقد كان ذلك لعشرة اعوام خلت .. وكانت مفاجأة غير منتظرة اذ كان هذا المجهول صديقي القديم (وانيس) الذي كان يدين ذات يوم بنفس افكاري ، بيد انه نبذها واعتنق افكاراً اخرى !..واحتدم بيننا اوار الجدال وتشعب الهجوم ... وفي الجلسة الثانية انجرفنا كرة اخرى في مناقشة حامية الوطيس تارة اهاجم حزبه الهدام ، واخرى افسح له المجال ليشرح لي مرمى منظمته ويوضح اهدافها وفي الجلسة الثالثة فسحت له المجال فراح يفند اقواله ويحمل على العصبيات القومية في الاوطان ، والنعرات الوطنية في الامم ، وخرجت بعدها

من مقابلته وفي اعماقي صراع وثورة ، وكانت تدوي في اعماقي كلمات :

(الانسانية المعذبة ... صالح البشرية العام ... امة واحدة على وجه البسيطة ... السلم العالمي ، مقاومة الحرب ... شجب المؤامرات الاستعمارية التي تحاك لبلادنا ... الرغيف ولقمة العيش .. رفع مستوى العامل الحياتي ! ..)

جلسات هادئة اعقبتها اجتماعات ، وتلتها محاضرات ، فاذا ببريق عقيدته يبهرني ، واذا بي احس مع الايام ان انقلاباً جديداً قد وجد سبيله الى حياتي ! .. الى نفسي ! .. واذ عيناي تتفتحان على طريق جديد لا قبل لي بها ، لا نعتق من تكالبي على الخصوصيات التي كنت اخص بها ابناء طائفتي وامتي ولارتدع عن المناداة بفكرة قومية ضيقة محدودة الآفاق كانت قد حجبت النور عن ناظري وجعلتني عنهما في منأى ! ..

ورجعت الى نفسي احاسبها ، فيا عسر الحساب ، اذ الفيتها ملطخة في كل عار ، واذ بمكاني على الحضيض اتردى في حمأة الافكار الرجعية والمنطق القاصر ، فخجلت من نفسي وتمنيت لو ان احجر عليها لارد عنها انظار الشعب المتألقة بفيض من الامل الباسم .

وكان ان انقلبت على زملائي رفاق الطريق ، الذين آليت على نفسي يوم اديت القسم الحزبي على ان اسير معهم حتى النهاية فقد وجدتها - بعد ان اعتنقت الفكرة الجديدة

وانضممت الى (موكب المناضلين الاحرار) الدائبين على السير في (مضمارهم التصاعدي) - انها لم تكن الا طريقاً من شأنها ان تجر العالم اجمع الى الدمار والفناء .

وكان لاقالتي افكاري القديمة وحملي افكاراً تطورية جديدة اثر كبير في الاوساط التي عرفتني !..

وكما هو شأني دائماً وابداً انني ذو عجلة في كل ما احمله من الافكار ، لا يهمني الضغط والوعيد ، لا بل يزيدانني اندفاعاً في حقل تبشيري بفكرتي .

وكان للتهديدات الارهابية التي تلقيتها من منظمتي الاولى اثره في اندفاعي ونشاطي ، اذ تحولت الى كتلة كلهـــا حيوية ، اعمل جاهداً ليلاً نهاراً للتبشير بفكرتي الانسانية التي تؤول الى خلاص ابناء وطني اولاً ، وانتشال البشرية المعذبة المتردية في وحول التأخر والانحطاط ثانياً ، وانقاذ ثالثاً المجتمعات الانسانية من حماة الافكار الرجعية الضيقة ، التي من شأنها ان تعود بالوبال عليها وعلى اوطانها ...

وانتهيت الى انه يتوجب على الجميع ، جميع سكان المعمورة السير على هذا الدرب الجديد المؤدي الى (ذروات العز والمجد) حيث (سيخيم سلام دائم على الانسانية المعذبة) وتتحقق (عدالة عالمية مثلى) .

ورحت ورفاقي الجدد نعمل جاهدين ليل نهار لتعبيد هذه

الطريق المؤدية الى جنة طرد منها ابونا آدم كما جاء في اساطـــير التوراة ، جنة جديدة سيدخلها رجل القرن العشرين ليعيش مع اخيه الانسان في بحبوحة العيش الرغيد والسعادة الكاملة ، هـذه الجنة التي لا ولن يخرج منها الانسان بعد اليوم .

وانخرطت أعبّ من منهل الفلسفة المادية كؤوساً مـترعة وانا سادر ساه ، فخور بهذه الافكار ، احس انني الآن ، والآن فقط ، اصبحت عضواً انسانياً فعالاً في هذا المجتمع الانساني الواسع .

واذا بهم يشيرون اليّ بالبنان وهم يقـــولون :

(هذا هو الذي قاد التظاهرة الاخيرة وهو الذي لفظ ذلك الخطاب الثوري الناري منددا ً بحكومات الاستعمار والرأسمالية) .

تظاهرات كثيرة قدتها كان النصر ابداً وداغمـاً حليفنـا ، وكثيراً ما ادت بي الى السجن فكنت ادخله وقلبي يطفح بالبشر والسرور ... ادخله لا كالمسجون المغبون المغلوب على امره ، انما كالمنتصر الظافر ...

حتى غياهب السجون لم تكن لتحد من اندفاعي والحيلولة دون نشر افكاري بين المسجونين والمجرمين ، ولمَ لا ؟ او ليسوا مواطنين لي قسا عليهم المجتمع وحرمهم من لقمة العيش ، فضلوا سواء السبيل وانخرطوا في تيار الاجرام ؟!

* * *

وكانت اعظم فرحة مرت عليّ منذ ان هبطت هذه الغبراء ،

تلك الساعة التي وصلت فيها لجنة من ارمينياتفيد،بأننا سنعود!..
اجل سنعود الى ارض الوطن الذي ابعد عنه اباؤنا واجدادناقسراً.

وها نحن في الطريق نمخر عباب اليم الى محط الآمال والاحلام ،الى حيث تطبق الفكرة التي طالما تاقت نفوسنا لتطبيقها منذ زمن بعيد...وهاهوذا الفجر يشرق علينا وقد قاربت باخرتنا مشارف الوطن ... فجراً لم نر له مثيلاً ... واذا بالدموع تتزاحم الى اهدابنا لتنهمر كالسيل الدافق رغما عنا ، لقد كانت دموع الفرح ... دموع من احرق الشوق فؤاده الى لقاء من يحب ... واذا بنا نخر جميعاً ساجدين نردد : ارض الوطن ... ارض الوطن ... جنتنا الموعودة ...

* * *

مر اسبوع رتعنا خلاله في بحبوحة من العيش الرغيد وسط تلك الجنة ، اذ نزلنا ضيوفاً على حكومة بلادنا ، ومتعتنا بزيارة ضواحي العاصمة (يرفان) والتفرج على آثارها ومبانيها وازدهارها..

بيد انه ما كاد ينقضي الاسبوع حتى عهد لكل منا بالعمل الذي ارادته وفرضته عليه الحكومة ! ..

كما وسجلت اسماؤنا في الجيش الاحتياطي شيباً وشباناً، وبعد ايام ابتدأنا نقوم بالتدريب العسكري!..

وشيئاً فشيئاً اتضح لنا الواقع المؤلم ، وانزاحت عن اعيننا اغشية الزيف والخداع التي كانت الدعاوات المغرضة قد القتها

عليها ، وبانت لنا الحقيقة المرة جلية لا يستر عورتها حتى ولا ورقه التين ، لقد كانت حكومة بلادنا ، حكومة عملية ومادية ، بيد اننا لم نكن لنرجوا ان تكون (عملية) على ذلك الشكل الوحشي المخيف .

ففي الحرب العالمية الثانية كانت ارمينيا شأنها شأن الدول الدائرة في فلك الاتحاد السوفياتي قد قدمت الآلاف من ابنائها طعمة للحرب ، وفداء للدفاع عن روسيا والحفاظ على شؤونها ... ومستعمراتها المترامية الاطراف من الغزو النازي .

وبعد انتهاء الحرب فكر الطواغيت الحمر في املاء المكان الشاغر ، فكان ان استدعونا من بلادنا ... إذن ما نحن الا وقود جديدة و كبش الفداء لمآرب وغايات اسياد الكرملين .

واذا باحلامنا اوهى من خيوط العنكبوت ، وآمالنا تتحطم تحت اقدام حكومة دكتاتورية مطلقة يشرف عليها حكام تحركهم انامل الكرملين كما يحلو لها ، فيأتمرون بأمرها وينفذون مآربها دون ان يكون لحكومة ارمينيا اي سلطة اوسيادة ، شأنها شأن الدول المستعمرة من اسياد الكرملين والرازحة تحت نيرها ، وويل لمن يعصى من المواطنين الارمن للكرملين مطلباً ، فان الاعدام او النفي الى مجاهل سيبيريا ذلك الجحيم الجليدي ، او دفنه حياً في غياهب سجن (لوبيانكا) يكون مصيره ، متهماً (بالخيانة العظمى) . (والتآمر) على سلامة الدولة !

لقد كان الشعب برمته عبداً مسيراً تستغله حكومة مستبدة فتأخذ منه اكثر ما ينتج لتهبه اقل ما يمكنه الاستهلاك !..

واذا بحبهم للانسانية ومناداتهم للسلم ، كذب ورياء وتغرير بالسذج خارج الستار الحديدي ، اذ تبين لي ان في كل مدينة من مدنهم معامل تخرج السلاح والمتفجرات من شتى الانواع والاحجام ، وهم يدربون شبابهم القاصر ، وشيوخهم العجز ، على افانين الحرب مفتخرين بأنهم يعدون العدة للمعركة الفاصلة بينهم وبين العالم الرأسمالي ، وكانوا في الحقيقة اكثر من واقعيين ، فقد سمعت ضابطاً احمر يردد :

(ان القوة وحدها هي التي ستفرض احترامنا وافكارنا ومبادئنا على العالم ، وبذلك وحده نقرر السلم الذي نريده ، ونرتقي بالانسانية الى المصاف الذي نرغب) .

وبادرة اخرى لفتت انتباهي بعد ايام وهي اني وبعض المهاجرين كنا حيثما ذهبنا او سرنا نشعر ان عيون (الانكفيدا) تتبعنا وتصغي الى احاديثنا ، وتحصي – خاصة عليّ – خطواتي لانني كما سمعت منهم ، انني رجل يخشى جانبه !..

* * *

وثارت ثائرتنا نحن المهاجرين الجدد الذين رضعنا لبان الحرية في البلاد العربية اذ لم ترق لنا هذا اللون من الحياة البوليسية ومبادىء العنف والقسوة ، وقررنا في اجتماع سري القيام

بتظاهرة ...

وفعلاً كانت تظاهرة لم تشهد مثلها ارمينيا عامة ويرفان خاصة من قبل مثلاً .

وما كاد موكبنا الصغير يسير مجتازاً شوارع يرفان ويصل الى الساحة الواسعة الواقعة بالقرب من فندق (انتورست) حتى انضم الينا الكثير من الاهلين والعمال والفلاحين وصغار الموظفين والطلاب الذين ارهقتهم الملاحقات والضغط والارهاب البوليسي والمعاملة الشاذة من قبل حكومة لا ترعى حرمة المنازل والكرامة الفردية وتضرب بكافة الاعتبارات الانسانية عرض الحائط !..

خرجنا نعلن استنكارنا لمثل تلك القسوة والوحشية التي كان يعامل بها الفلاح والعامل رغم ما يبذله من جهود جبارة في تحسين الانتاج وتقديم اكثر ما يمكنه تقديمه من عمل ونتاج .

ولنعبر عن رأينا ، أليس مذكوراً في المبادىء ان للفرد الحق كل الحق في التعبير عن رأيه ؟ ..

وكانت ساعة حاسمة ، اذ برزت لنا فصيلتان من البوليس الاحمر المسلح ، وبدلاً من ان يفرقوا شملنا بسلام كما كان يصنع البوليس في البلاد العربية ، فقد اطلقوا العنان لنيران رشاشاتهم !..

التظاهرات في بلاد العالم البعيدة عن الستار الحديدي تطلق عليها الدعاوة المسكوفية بأنها (وعي شعبي) و (نضال طبقي)

اما في الدول والمستعمرات الروسية فاخلال بالنظام ، وتمرد

على الاوضاع ،وجحود في حق البلاد ، وخيانة وطنيةعظمى !..

لذا اطلقوا العنان لنيران رشاشاتهم بقسوة ووحشية واغرقونا بسيل من الرصاص ، فسقط منا من سقط ، وجرح من جرح!.. وهرب من وجد الى ذلك سبيلا !..

وكنت احد هؤلاء القلائـل الذين لاذوا بالفرار ، واذا الانباء تحمل لنا ان كثيراً من الذين تظاهروا معي قد اعدموا رمياً بالرصاص ،وآخرون زجوا في غياهب السجون،وآخرون نفوا الى سيبيريا ذلك الجحيم الجليدي !..

كان (الانكفيدا) يجد في البحث عنا ، بيد اننا كنا مختبئين في قرية (آنوش) حيث جلّ سكانها من الثائرين على الاوضاع الراهنة في ارمينيا ،ولم تكن قرية آنوش القرية الوحيدة الثائرة على الاوضاع والمعاملة التعسفية الاستبدادية التي يعامل بها المواطنون في ارمينيا ، بل اتيح لي الاختلاط بالكثير من الفلاحين والعمال من سكان القرى المجاورة،فتبين لي ان جميعهم يحملون في قلوبهم جذوة الثورة على الاوضاع في البلاد والنقمة المطلقة على ديكتاتوريها المستبدين.
غير انهم كانوا ينتظرون بفارغ الصبر الساعة الحاسمة التي سيقررون فيها مصيرهم في الحياة لينعتقوا من ربقة العبودية الحمراء .

وحين شعرت ان (الانكفيدا) ورجال البوليس الاحمر دائبون في البحث عني وعن زملائي قررنا رغما عنا الهرب .. اجل الهرب من تلك الجنة الموهومة التي عبدنا الطريق للوصول اليهـا ، فاذا

نحن نحفر بايدينا لانفسنا الحرّة دون ان ندري .. نفقاً الى الجحيم!.

توقف آكوب عن الكلام لحظة ثم استانف قائلا :

لهذا يا صاحبي تراني منذ ان عدت قد شهرت سلاحي في وجه اصحاب هذه الفكرة الجهنمية ورحت احاول جهد استطاعتي ان افك العصائب عن اعين الناس وانير بمصباحي الوضاء الطريق امامهم الى الحقيقة ، الى الواقع دون تمويه او تزوير .. وليقولوا ما شاؤوا .. وليثرثروا ما طابت لهم الثرثرة ... ليتهموني بأنني عميل الاستعمار ، وحسبي بعملي هذا انني ارضي ضميري الوطني ، ووجداني الانساني ...

لكن شيئاً واحداً اريد ان اقوله لهؤلاء المواطنين الضالين : ليت روسيا تلك الجنة الموهومة تفتح ابوابها على مصراعيها كبقية البلاد الديموقراطية التقدمية في العالم ، وللجميع من يرغب بزيارتها ، ليرى الناس ويشاهد العالم اجمع في اي جحيم يتردى شعبها البائس!..

* * *

افقت من غفوة احلامي ومن استرسالي في الاصغاء الى هذا الحديث الغريب ، فاذا بطيف آكوب قد توارى من مكتبي ، فقد كان رجلاً عملياً لا يحب ان تضيع عليه لحظة واحدة دون يعمل على نشر الحقائق عارية ، ويفضح الاضاليل التي انطلت على الكثير من السذج الابرياء من مواطنيه ، خشية ان يدفعوا ما دفعه هو من ثمن في حفرهم لامتهم ومجتمعهم طريقاً الى الهوة الحمراء ، ونفقاً ... الى الجحيم .

فهرست

ملاحظة :

في سير مطالعة هذا الكتاب ، قد يمر القاريء ببعض اخطاء مطبعية لا تخفى عليه فالرجاء المعذرة .

